ابراهيم عبد الحليم
رسالة العام الجديد


● مطبوعات الغد ●

رسالة العام الجديد

إبراهيم عبد الحليم



الغلاف بريشة الفنان حسن فؤاد

الطبعة الاولى
يناير ١٩٨٤

« كتبت هذه الصفحات
فى الشهور الأخيرة من عام
(١٩٦١) فى (سـجن
الواحـات الخارجـة)
وتنشر لأول مـرة »

« أ. ع »

- ١ -

ابنتى العـــزيزة أمـــل

لا أدرى كيف أبدأ خطابى لك • كنت من قبل أكتب خطاباتى الى أمك وأتحدث فيها عنك وعن مخلص وناديه وعن بيتنا الذى حرمت من رؤيته ثلاث سنوات طوال • ولم يحدث مرة كمـــا أحـــاول الآن أن أمسكت القلم لاكتب لك أنت يا أصغر أبنائى • ولعل هذا يا ابنتى العزيزة يكون أول خطاب فى حياتك يرسل باسمك ، فأنا لا أتخيل وأنت ما زلت فى عمر الزهرة قبل أن تتفتح أن لك أصـــدقاء تتبادلين معهم الرســـائل •

أنت مازلت فى التاسعة من عمرك ، وبعد سنوات قليلة ستصبحين عروسة ، وحين تمشين فى الشارع ، سيتطلع اليك الشباب من عمرك، ويبهرون بجمـــالك ، وحين تكبرين وتدخلين الجامعة ، ســـيكون لك ولزملائك أصدقاء قد يحاول أحدهم كما أحاول الآن أن يمسك القلم ويكتب رســـالة باسمك •

انى أعود عشرين عاما الى لوراء لأتخيل من جديد ترام الجيزة، وحديقة الأورمان من جانب ، وحديقة الحيوانات من الجانب الآخر ،

والشارع الواسع الذى بينهما والأشجار التى تظله • وقبة الجامعة وهى تظهر شامخة من بعيد ، والساعة بدقاتها ذات الرنين الذى لا يمكن أن ينسى ، « — تم — تام — تم تم — تم — تام — تم — تم » ، وعربات الترام والأوتوبيس وهى تفرغ الفوج تلو الفوج من الطلبة والطالبات ، والعيون التى تتلصص النظرات وتتابع السيقان خطوة خطوة ، والصدور الشابة وهى تهتز فى حياء ونشوة وتعزف لحنا لا نشبع من سماعه أبدا ، والسواعد الفتية المترابطة ، والاحلام والآمال التى ترتسم على كل الوجوه بالبسمات والضحكات والقسمات والملامح التى تعبر عن التحدى وعن الثقة التى لا حد لها بأن أصحاب الأرجل التى تدق على الأرض بعنف وقوة وبخطوات سريعة فى سباق مع الزمن وكأنهم يعيشون فى الغد الذى لم يولد بعد •

مالى أعود عشرين سنة الى الوراء لأتخيل طالبات الجامعة مثل عدد قليل من زهور حمراء وبيضاء وزرقاء وفى لون الورد والبنفسج وقد تناثرت وسط حقل كبير من الذرة أو القمح أو القطن • مالى أعود الى الوراء وأتخيل أيام الماضى وأنت تعيشين الآن أياما جديدة وفى وطن جديد •

وفى مقدورى يا ابنتى أن أعبر السنين ، وأن أتخيلك وأنت طالبة فى الجامعة ، وأن أرى شباب المستقبل فى حال غير الحال الذى كنا فيه • شبابا يؤمن بالصحة وبالعلم والعمل والسعادة ، ولم يعد فى حاجة الى نظرات التلصص والى الشىء القاتم المرتجف الذى خدعنا حين كنا نظن أنه الحب ، وسلبنا بذلك أجمل أيام عمرنا •

لقد سلبنا الربيع يا ابنتى • وهل يمكنك أن تتخيلى الحديقة بلا زهور والأشجار الوارفة الظلال وهى تعيش طوال العام بلا أوراق

خضراء ؟ لقد أمضيت أيامى الحلوة وكأنى احدى هذه الأشجار التى مر عليها الربيع دون أن تورق •

ان تلك الذكـريات يا ابنتى هى التى تدفعنى الى أن أتخيلك وأنت فى طريقك الى الجامعة تركبين ترام الجيزة والى جانبك أحـد زملائك وأنتما تتناقشان فى احدى مسائل العلم أو يحكى أحدكمـا للآخر عن الأشياء الجـديدة الباهرة التى يصنعها الانسان فى العالم• وفى مقـدورى يا ابنتى أن أتخيلك وذراعك فى ذراع زميلك وأنتمـا تسيران معا وفى عرض الطريق وبحماس ونشاط وشجاعة وببراءة الشباب وبلا شفاه ترتجف وبلا صور باهتـة كالغمامة تخيم على العيون وتطفىء بريقها • شاب ينظر الى المستقبل فى ثقة ، وفتاة جميلة تتعلم لتكدح وتقاسم رجلها الحياة ، وبلا عقد وبلا خوف وقد نفضا عن كاهلهما كل خرافات الماضى وقيـوده وآثامه •••

وأناشدك يا ابنتى العزيزة باسم أبوتى وباسم حبى وحنـانى والمستقبل المشرق الذى أريده لك أن تضعى الحياة الجديدة التى تعيشينها الآن فى مقابل الحياة التى عشتها أيام طفولتى وصبـاى لتعرفى الفارق بين حياتين ولتزدادى ثقة وايمانا بأن الأيـام التى ستأتى تحمل لك ولأطفال كل الناس سعادة أكبر وحياة أكثر انسانية وأكثـر جمـالا وطمأنينة •

الصداقـة ، الزمالة ، التعاطف الانسانى ، الأمل فى المستقبل لك وللشاب الذى ستعرفينه ولكل الأطفـال الذين فى عمرك والذين سيصبحون شبابا بعد سنين قليلة يمكننى أن أعبرها كما أحاول الآن أن أعبر مئات الكيلو مترات لأصل الى بيتنا وأراك وأرى الست ماما كما يحلو لك أن تسميها ••••

انى أتخيل الست ماما الآن وكأنى أراها أمامى بلحمها ودمها وملامحها الطيبة وهى تروح وتجىء بين المطبخ والصالة ، وحجرتك أنت وأخويك ، والحجرة الأخرى المجاورة لها التى كانت لى وللست ماما بالمخدع الذى كان يحتوينا معا والتسريحة ذات المرآة الكبيرة التى كان يحلو لى أن أتابع من خلالها النظر الى حركات أمك والى قسمات وجهها وهى تسرح شعرها وتستعد للخروج ، والحجرة الثالثة التى كانت تجمعنا جميعا ،وكنا نستقبل فيها الضيوف ، والتى كان فيها مكتبى ، وتركت عليه أوراقا أتممت كتابتها وورقة أخيرة لم أتم كتابتها . كانت تلك الورقة الأخيرة استمرارا لحديث بدأ وتوقف فجأة . كانت تلك الأوراق هى الصفحات الأولى من قصة قصيرة توقفت شخصياتها عن الحديث وعن الحركة وعن الحياة عند آخر كلمة كتبتها . لقد تركت بطلها وهو شاب أكمل دراسته فى المدارس الصناعية ويحب فتاة تعمل فى احدى الشركات وهو مازال يهيم فى شوارع القاهرة بحثا عن عمل . كان يريد بيتا من غرفتين . كان يريد أن يحصل على عمل وعلى مكان يحتويه هو وفتاته وكنت أرى فى الأفق البعيد وأنا أحلم نيابة عنه أسوان والتوربينات وآلاف الجرارات والمحاريث وبحيرة السد العالى والسواعد الجديدة التى ستعمل هناك والبيوت الجديدة التى ستبنى هناك والبذور الجديدة التى ستغرس فى الأرض الشاسعة والتى ستنمو وتكبر وتتحول بعد سنين الى جنات خضراء . كنت أتخيل أن المستقبل الذى نراه بأعيننا والوطن الجديد الذى نبنيه فى حاجة الى ساعديه .

وتركته يا ابنتى وهو مازال هائما فى شوارع القاهرة قبل أن يحصل على عمل . كنت أنوى أن أجد له عملا فى مشروع السد العالى وأن أزوجه من الفتاة التى يحبها ، وأن أنقلها هى الأخرى الى أسوان

لتعمل بجواره فى قلب الصحراء وليحتويهما بيت واحد • كنت أنوى أن اجعل منه ومن فتاته النموذج والمثل لشباب الطليعة وللرواد الجدد الذين سيبنون السد العالى وسيزرعون بسواعدهم الفتية آلاف الأفدنة ويحولون أراضينا الصفراء التى لا نهاية لها الى جنات خضراء والى مدن وقرى تنبض بالحيـاة والنشاط والسعادة •

أنت لا تدرين يا ابنتى العزيزة كيف يهتز قلبى حين أذكر البيت الذى كان يجمعنى معكم • انى أجلس أحيانا على الأرض ، وأنتقل بخيالى الى بعيد ، وأمسك قطعة من الحجر الأبيض ، وأرسم بها على البلاط بالخطوط والظلال البيت الذى أحبه والذى أحس كلما خلوت الى نفسى بكيانى كله مشدودا اليه • الباب الخارجى ـ الممر الضيق ـ المطبخ على اليسار ـ الصالة ـ الشباك الزجاجى الكبير الذى يطـل على منور البيت ـ الحمام ـ الأبواب التى تـؤدى الى الحجرات الثلاث • كل ذلك كنت أحدده أمامى بالخطوط والمستطيلات والمربعات • وبعد ذلك كنت أراجع قطع الأثاث قطعة قطعة • وأعيد توزيعها ليصبح البيت أكثر راحة وجمالا • لقد فكرت فى أن نستفيد من الصالة الكبيرة ونحولها الى مكان ينبض بالحياة • سنضع فيها منضدة كبيرة تصلح للعب البنج بونج ، ونستخدمها كمائدة للطعام فى نفس الوقت بعـد أن نغطيها بمفرش كبير من المشمع المنقوش بأوراق الشجر الخضراء والزهور المختلفة الألوان • لقد ذكرت لى الست ماما فى خطابها الأخير أن « مخلص » أصبح يجيد هذه اللعبة وأنه على استعداد لأن يتحدانى ويغلبنى • ورسمت بخيالى فى ركن الصالة المجاور لحجرتكم مكتبـة كبيرة تجمع فوق رفوفها الكتب والبك أب والاسطوانات وتصبح بذلك ركن الثقافة فى بيتنا • والمطبخ ، كم حلمت أن يكون لنا مطبخ نظيف جميل ••• والشرفة الكبيرة ••• سنشترى لها منضدة ومقاعد مـن

الخيزران مثل تلك التى كنا نجلس عليها فى جـــزيرة الشاى بحديقة الحيوانات ، وسنضع فى أركانها أصص الزهور التى سأقوم بزراعتها وريها ورعايتها بنفسى •

وأشياء كثيرة صغيرة وبسيطة كنت أعيشها وأمارسها معكم كل يوم وكنت أظن أنها لا تمثل أهميـــة كبيرة بالنسبة لى ولكم وأصبحت الآن وكلما تذكرتها تهز كيانى هزا وتنقلنى بعواطفى وأحاسيسى اليك والى أختك وأخيك والى الست ماما والى البيت الذى كنا نجتمع كل ليلة تحت سقف حجراته •

مازلت أذكـــر وأنا أعيش معكم فى بيتنا منظرك أنت وأختك ومعكما أخوكما الكبير ولم يكن قد تعدى العاشرة وأنتم تقفون صفا واحدا وكأنكم جنود فى معركة وتنشدون فى صوت واحد وفى حماس دافق ••

« اللـــه أكبـــر
« اللـــه أكبـــر
اللـــه فوق المعتـــدى »

ثم أراكم وأنتم تنشدون بعد ذلك وبصوت يهز جدران الحجرة نشيد عمو كمال كما يحلو لكم أن تسموه •

« هذه ارضى أنا
وأبى مات هنـــا
وأبى قال لنـــا
مزقوا أعـــداءنا »

ثم تغنى أختك نادية وأنتما تردان عليها ••

« والله زمان يا سلاحى

اشتقت لك فى كفاحى

انطق وقول أنا صاحى

يا حرب والله زمـــان »

فى تلك الأيام يا ابنتى كانت هذه الأناشيد مطبوعة فى الكتب التى توزع عليــكم فى المدارس ، وكنتم تنشدونها وأنتم واقفون فى طابور الصباح • وأيام العدوان يا ابنتى العزيزة كنت أتابعكم يوما بيوم وأنتم تتحدثون عن ايدن وجى موليه ، وكأنكم تعرفونهما من قديم ، وتعرفون أنهما السبب فى الخطر الداهم الذى أحاق بوطننا ، وفى القنـــابل التى كانت تنفجر فوق رؤوســـنا فى قاهرتنا الحبيبة وفى بورسعيد التى كانت قلوبنا تعيش معها لحظة لحظة • وكنت أسمعكم وأنا أحس بالزهو وأنتم تتحدثون عن مظاهرات تلاميذ المدارس التى اشتركتم فيها والتى كانت تلعن ايدن وجى موليه وتحمل أكفانهما فوق الأكتــــاف •

وكنت بعد أن زال الخطر ، وبعد أن تحررت أرض الوطـــن من المعتدين ، أتابعكم أنتم الثلاثة وأنتم ترتدون أجمل ما عندكم من ثياب لتذهبوا الى قصر عابدين ، القصر الذى كان يسكنه الملك ، والذى لا يبعد الا خطوات عن بيتنا • ولم يكن فى مقدورى يا ابنتى حين جئت الى القاهرة أن أمشى قريبـــا منه ، أو أحلم بدخوله لأرى مـــا بداخله من حدائق وتحف وقاعات مزخرفة بماء الذهب ومقاعد مطعمة بقطع من الزمرد والفضــــة والياقوت ، ومخادع عليها مراتب من

ريش النعام وتهفهف على شرفاتها ونوافذها ستائر من قماش يغزل من خيوط أو أسلاك رفيعة من الذهب والفضة ، وأشياء أخرى عديدة توجد فى هذا القصر وتختفى خلف أسواره الحجرية العالية كنت أتخيلها أكثر غرابة من تلك التى تتحدث عنها قصص ألف ليلة وليلة • كنتم تذهبون الى هناك وحدكم وكأطفال من أبناء الشعب ، وتدخلون من أبواب بلا حراس ، لتشاهدوا كل أسبوع « ندوة الفيلم » التى كانت تعرض أجمل الافلام العالمية وأكثرها انسانية • كانت هذه السهرة الممتعة لا تكلفكم أكثر من قرشين ثمن تذكرة واحدة • كان أخوك يعرف أنكما تركبان الترام معنا مجانا وتدخلون السينما مجانا • وكان كما حكى لى يأخذ واحدة منكما فى يده ويطلب من الثانية أن تدخل مع أسرة بلا أطفال حتى لا تعطوا الموظف الواقف على الباب الفرصة ليكتشف أن الأطفال الثلاثة قد تسللوا الى الداخل بتذكرة واحدة • وكم كان جميلا أن تحكوا لى بعد عودتكم الى البيت قصة الفيلم وأن يصحح كل منكم للآخر الأخطاء التى يقع فيها وهو يسرد أحداثه ويقلد حركات شخصياته وأبطاله •

وأشياء عديدة أخرى كنت أحياها مازلت أذكرها وأحاول أن أتخيلها وكأنى أحاول أن أعود الى الوراء وأعيشها وأستعيدها من جديد •

كنت أتابع أخاك كل يوم حين أحضر للغذاء ويسمع طرقاتى ويستقبلنى على الباب • كان وجهه يطفح بالبشر حين يرانى وأنا أحمل الجريدة فى يدى • كان ينتزعها منى ويجرى الى حجرة الجلوس ويفردها أمامه ويركع بجوارها وكأنه يصلى ويأخذ فى تقليب صفحاتها وفى قراءة العناوين والنظر الى الصور • وكنا بعد ذلك نجتمع

حول المائدة ، وتحمل أمك الأطباق والبخار يتصاعد منها ، ونحس برائحة الطعــام الحلوة وهى تنفذ الى بطوننا الخاوية • كنا يا ابنتى وبعد أن نبدأ فى تناول الطعام نرى مكان مخلص مازال خاليا فنناديه جميعا كل منا بأسلوبه وشتائمه وسخرياته ، فلا يأبه لنداءاتنا ، ولا يأبه لتهديدنا له بأن طعامه سيبرد ويظل يتصفح الجريدة ، ويقلب أوراقها ، حتى تضطر الست ماما الى أن تترك مائدة الطعام لتذهب اليه ، وهى تحاول أن تخفى بمظهرها الغاضب الفرحة التى تغمرهــا لأن أول طفل لها صار كبيرا وصار يعرف كيف يقرأ الجريدة • كانت أمك تشده من ذراعه وهو يقاوم وتظل تشده حتى تجلسه رغما عنه على مقعده • وكان هذا الابن المشاكس ــ مستغلا احــدى عاداتى السيئة ــ يحمل الجريدة أو المجلة فى يده ، ويضعها على ركبتيه ، ويلتهم الطعام وهو يتابع القراءة والنظر الى الصور ، دون أن يعطى أى اهتمام لاحتجاجاتى واحتجاجات أمه • كنت أتابع كل ذلك وأنا أعرف أن الجريدة أصبحت جزءا من حياته ، بل وجزءا من واجباته ، لأن المدرســة كانت تطلب منه ومن زملائه فى الفصل أن يشــترى كل منهم الجريدة مرة واحدة فى الشهر ، ليتمكنوا من قراءتها باستمرار ومن معرفة ما يجرى فى وطننا وفى العالم ، وليتمكنو أيضــا من الاشتراك بالأخبار والتعليقات فى الاذاعة الصباحية بالمدرسة •

كنت أتابع كل ذلك يا ابنتى العزيــزة وأنا أفكر فى أيامنا ، أيام كنت طفلا وصبيا فى عمر كل منكم • فأنا لا أذكر شكل الجرائد فى تلك الأيام • لم يكن الفقــر وحده هو السبب • كــان فى مقدورنا ومثلكم تماما أن يدفع كل منا قرشا كل شهر ليقرأ الجريدة طــوال الشهر • كانت هناك أسباب أخرى عرفتها بعد ذلك • كانت الجرائد محرمة علينا والحديث عن ايدن وجى موليه والمظــاهرات ضدهمــا

محرمة علينا أيضا ، ولم يكن هناك اذاعات مدرسية ، ولا أناشيد فى طوابير الصباح •

ومنظر مخلص وهو يلبس حذاء طويل العنق أكبر من مقاسه بكثير ، ويضع قبعة على رأسه ، ويحمل عصاة علي كتفه يتدلى منها كيس به ملابس قديمة • ويبدأ العرض كل مرة بأن يحدف احدى قدميه ناحية اليمين ويحدف الأخرى ناحية اليسار ، ثم يأخذ فى السير جيئة وذهابا فى الصالة الواسعة مقلدا المشية التقليدية لشارلى شابلن • أنت تعرفين يا ابنتى الحب الكبير الذى يحمله مخلص فى قلبه لهذا العبقرى ، فقد كان يحاول دائما وهو يقلده أن يتقمص شخصيته لا فى مشيته وحدها ولكن أيضا فى انسانيته ونظرته الى الحياة • ولعلك مازلت تذكرين الساعات الحلوة التى كنا نقضيها مع الضيوف ، حين كنتم تعرضون عليهم رقصاتكم ، وتسمعونهم أغانيكم وأناشيدكم ، وكيف كانوا يلحون على مخلص أن يعيد المشاهد التى يمثلها من أفلام شابلن وخاصة المشهد الذى يمشى فيه متأبطا ذراع حبيبته والرقصة المشتركة بينهما التى كانت تمثل فيها نادية دور الحبيبة •

وأشياء أخرى كثيرة يا ابنتى العزيزة مازلت أحلم بها وكأنى أعيشها من جديد ، ومازال قلبى يهتز ويسرع فى نبضاته كلما تذكرتها ••• السعادة التى كنت احسها حين يستأذن منى مخلص ليذهب مع زملائه بعد خروجهم من المدرسة الى دار الكتب ، وحديثه لى بعد عودته عن أحد الموظفين هناك ، وكيف أصبح صديقا لهم ، يستقبلهم كل يوم ، ويعرض عليهم قوائم الكتب ، ويعلمهم كيف ينتقون الكتاب الذى يريدونه ، ويترك مكتبه ويجلس معهم ، ويناقشهم واحدا واحدا فى موضوعات الكتب التى يقرءونها • كان هذا الموظف

يا ابنتي كما حكى لى مخلص يفاجئهم من حين لآخر بأن يخرج من جيب سترته قطع الحلوى ويوزعها عليهم ليعبر لهم عن سـعادته لاهتمامهم بالقـراءة •

والساعات التى كنـا نقضيها كل أسـبوع فى بيت عمو كمال وسيمفونيات شايكوفسكى وبيتهوفن ومـوزار وغيرهم من عباقـرة الموسيقى والتى كان يصر على أن تجلسوا بهدوءه وأنتم تستمعون اليها معنا • وأغنيات « بول روبسون » التى كنا لا نمل سماعها بدل المرة مرات وكنتم ترددون بعض عباراتها •

أتذكرين أغنيته لطفله الصغـير

« آه يا طفلى العزيز
يا جزءا مـن نفسى
أنا أغنى لك لتنام
أنت تريد القمر لتلهو به
وتريد النجوم لتمسكها بيديك
وأنا سأحضر اليك القمر
وسأضع فى يدك النجوم
اذا أغمضت عينيكَ ورحت فى النوم »

وأغنيته الأخرى عن « الأنهار الأربعة » اليانجتسى والمسيسيبى والفولجـا والدانوب ، وكيف يجب أن تلتقى تلك الأنهار وتصب فى مجرى واحد ، لتربط جميع الشعوب • وأنا يا ابنتى العزيزة وقـد أدركت أخيرا وأنا أستعيد كلمات هذه الأغنية أن الأنهار الاربعة فى أغنية روبسون ينقصها نهرا خامسا هو نهر النيل ليجتمع شمل البيض والسمر والسود وكلّ سكان العالم ولتلتقى حضارة وادى النيلّ بكلّ عراقتها مع حضارات القارات الأخـرى •

ورائحة الطعام وهى تفوح فى البيت وتملأ حجراته ، ووعاء اللبن وهو يغلى ، وأختك نادية وهى تمسك كوبها وكأنها تقبض على شيء تخاف أن يفلت من يدها أو يخطف منها ، ثم وهى تشرب اللبن وحافة الكوب فى فمها وبين أسنانها وتبلعه بجرعات كبيرة متتالية دون أن تتوقف ودون أن تأخذ نفسها ، وتظل تمسك حافة الكوب بأسنانها حتى تمتص آخر قطرة منه . كنت كلما رأيت أختك فى تلك الحـــالة أحس بأنها فى حاجة الى كوب آخر وربما الى كوب ثالث ، وكنت أحاول أن أقنع الست ماما بأن تضاعف كمية اللبن التى تشتريها ، فتؤكد لى بالأرقـــام أن ميزانية طعام البيت لا تتحمل الا كيلو اللبن الذى تشتريه لكم كل يوم .

والأيام التى كنا نقضيها معا فى حديقة الحيوانات ، والسعادة التى كنت أحسها وأنا أراكم وأنتم تأخذون نصيبكم من متع الحياة ، وتنعمون بممارسة أشياء لم أرها ولم أحلم بها فى طفولتى ... أنتم الثلاثة تركبون أحد الأفيال وأنا وأمك مع غيرنا من الأباء والأمهات نتابع الفيل الضخم وهو يهز زلومته ويتحرك بخطوات ثقيلة وهولا يحس بأنه يحمل شيئا على ظهره ، وأحاسيس السعادة والبهجة تغمر وجوهكم ووجوه الأطفال الآخـــرين .

أن يعيش الانسان . أن تتحول الأبوة والأمومة الى حب والى أشياء جميلة والى سعادة للأبناء . أن يجد الأطفال مثلك ومثل أختك كفايتهم من اللبن . أن نعيش فى حرية وسعادة . هذا ما أريده لك يا ابنتى وما أريده لأطفال كل الناس . ومن أجل هذا كتبت لك هذا الخطـــاب وحاولت ألا أذكر فيه الا الجانب الحلو من حياتنا .

★ ■ ★

— ٢ —

أعذرينى يا ابنتى . لقد غرقت فى الحديث عن أشياء لم أكــن أفكر حين أمسكت القلم أنى سأتناولها فى خطابى لك . لقد أنزلقت دون أن أدرى فى الحديث عن أشياء تعرفينها وعشناها معا ، وحلقت بعد ذلك بخيالى الى بعيد ، لأراك وأنت فى عنفوان شــبابك تحملين حافظة كتبك وتركبين الترام وأنت فى طريقك الى الجامعة .

لم أكن أنوى أن أتخيل المستقبل أو أحلم به أو أعيش فيــه . كنت أنوى أن أعود الى الوراء ثلاث سنوات كاملة . لم يبق الا أيام قليلة وتحل نفس الذكرى . ولعل تلك الذكرى هى التى دفعتنى الى أن أمسك القلم وأكتب أول خطاب أوجهه لك أنت بالذات ...

ليلة رأس السنة وميلاد العام الجــديد . كنت تنامين معى ومع أمك فى حجرتنا وعلى مخدعنا . الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . أتذكرين ؟ كنت غارقة فى النوم ، وفجأة ، قمت مذعورة وأخــذت تنظرين حولك باستغراب وفــزع ، وحين وقعت عيناك على أخذت ترددين تلك العبــارة .

— « فيه ايه يا بابا ؟ »

— « مين دول يا بابا ؟ »

لم يكن أمامى الا أن أرد عليك بلهجة تجمع بين الرجاء والحنان والأمر « ما تخافيش يا أمل ــ نامى ــ نامى ... »

ولم أكن أتوقع أن تستجيبى لرجائى ، وتضعى رأسك على الوسادة ، ويأخذك النعاس دون أن تعيدى سؤالك ودون أن تحاودى النظر الى الأشباح التى ظهرت فجأة فى الحجرة والتى كانت تحيط بى .

كانت ليلة عيد الميلاد ــ الليلة التى كان يحتفل فيها العالم بمولد عام جديد ــ عام ١٩٥٩ . أتعرفين يا ابنتى مدى فرحة الأب والأم بمولد طفل جديد ؟ أنت أصغر أولادى ولم تجربى رؤية الفرحة فى بيتنا . أسألى « مخلص » ليحكى لك عن فرحتنا ومن ما فعلناه يوم مولدك .

ولكن ــ لماذا أحدثك عن يوم لا يمكن أن تتذكريه ويوجد فى حياتك يوم آخر لابد أنك مازلت تذكرينه فقد كنت أيامها تذهبين الى المدرسة وتعرفين حقائق كثيرة عن الحياة ...

أتذكرين يا ابنتى يوم دعينا لحضور عيد ميلاد أحد أبناء خالتك ؟

مازلت أذكر كل شىء .

فى اليوم التالى طلب منى مخلص أن أعود مبكرا الى البيت لانكم تعدون مفاجأة لى . وحاولت بكل الطرق أن أعرف منه السر الذى يخفيه عنى ففشلت . وبذلت محاولات أخرى مع الست ماما ، تأكدت بعدها أنها هى الأخرى لا تعرف شيئا عن تلك المفاجأة . وخرجت من البيت يومها وأنا أفكر وأخمن وأسأل نفسى « ترى أية مفاجأة

يعدها لى هؤلاء الاولاد ؟ » وفى الساعة التاسعة مساء تذكرت الموعد، وتركت عملى وعدت الى البيت لأراكم فى انتظارى ، ولأرى مائــدة الطعام والمقاعد والأطبــاق وكل شيء وقد أعد لحفلة شاى . لــم تتركوا لى الفرصـــة لأخلع ثيابى ، وأرغمتونى على أن أحتل مقعدى لتبدأ الحفلة . وحين سألتكم بدهشـــة واستغراب عن السبب الذى جعلكم تعدون هذا الاحتفال ، أجبتم على بصوت واحــد « عيــد ميلاد أمــل » وزدت دهشـــة واستغرابا لأنى كنت أعرف أنك لم تولدى فى مثل ذلك اليوم . لقد ولدت يا ابنتى بعد شهرين من قيام ثورة ٢٣ يوليو وليس من السهل أن أنسى أو ينسى أحدنا هذا التاريخ أو ينسى الشهر الذى ولدت فيه . وأخيرا عرفت القصة .

لقد شــهد مخلص عيد ميلاد ابن خالتك ، ورجع الى البيت وهو يفكر « لماذا لا يحتفل بابا وماما بأعياد ميلادنا ما دامت أعياد الميلاد جميلة بهذه الصـــورة ؟ »

واختارك أنت بصفتك أصغر أخويك ووعد نادية بأن يكــون الاحتفال بعيد ميلادها فى الشهر التالى . لقد رأى فرحة عيد الميلاد فى بيت خالتك وأراد أن ينقــل الفرحة الى بيتنا دون أن يعطى أى اعتبار لتاريخ يوم مولدك أو يوم ميلاد أختك .

وبدأت الحفلة البسيطة التى لم تكلفكم الا قروشـــا قليلة استدنتم غالبيتها من الست ماما التى تأكدت بعد ذلك أنها هــى الأخرى لم تكن تعرف شيئا عن المفاجأة التى أعددتموها لكلينــا . كانت أختك تعد الشاى . وكنت يا ابنتى تحملين الفناجين . وكان مخلص يوزع قطع الجاتوه علينــا . وظهرت الشموع الصغيرة الملونة

لا بعدد سنى عمرك كما تعود الناس أن يفعلوا فى مثل هذه المناسبة ولكن بالعدد الذى تمكن مخلص أن يحصل عليه من البقال بقروشه • وأخذنا نلتهم قطع الجاتوه ونرشف الشاى باللبن وكأننا فى عيـــد حقيقى ، وكأنك يا ابنتى ولدت فعـــلا فى مثل ذلك اليوم •

وأعلن مخلص بدء القاء الكلمات ••• ولأول مرة سمعت أبنائى وهم يخطبون • أتذكرين يا ابنتى ما قاله مخلص فى تلك الليلة ؟ أن الكلمات التى قالها ما زالت محفورة فى وجدانى وما زلت أذكرها كلمــة كلمــة •••

« ان أبى يحب السلام ويحب العمال والفلاحين ولكى أسر أبى وأنا أحبه فأنا أقول له بأنى ونادية وأمل نحب العمال والفلاحـــين ونحب السلام وسنذاكر دروسنا لنخدم الوطن » •

وطلبتم من الست ماما أن تقف وتقول كلمتها ، فتحدثت عـــن شقاوتك يا ابنتى وعن عادة وضع اصبعك فى فمك حتى وأنت راقـــدة فى فراشك وغارقـــة فى النوم •

وجاء دورك يا ابنتى ووقفت تتكلمين وكانت السعادة تغمرنى وأنا أسمع كلمـــاتك •

« أنا بحب بابا قد الدنيا كلها ــ وأنا بحب ماما قد الدنيا كلها • وأنا عشان ماما ماتزعلش منى ما عنتش هاأحط صباعى فى بقى وها أطاوع ماما وأعمل كل الحاجات اللى هاتطلبها منى ••• »

وأمضينا تلك الليلة يا ابنتى ونحن نرشف الشاى ونأكل قطـــع الحلوى ونرى ظلال الشموع وهى تتراقص على وجـــوهنا وعلى

جدران الصالة ونتبادل الأحاديث والكلمات • أمضينا يا ابنتى ساعات حلوة من تلك الساعات التى تحفر فى القلوب والتى يعيش الانســان بعدها عشرات السنين ولا ينساها أبدا •

وذكرى أخرى لمشاهد رأيتها ما زالت محفورة فى قلبى ومازلت أتذكرها كلما فكرت فى الاطفال وفى الحياة وفى الآمــال التى نعيش عليهــا كآدميين •

كنت بعيدا عن الوطن أسير وحيدا فى شارع كبير من شـــوارع روما • كنت قد مشيت فى هذا الشارع مرات عديدة • وكنت كما هى عادتي فى القاهــرة أحب النظر الى واجهات المحلات لأرى الأشياء المعروضة فيهــا • الأقمشة بألوانها المختلفة • ملابس الســيدات الجاهزة • ملابس الأطفال • اللعب والعرائس • الأنواع المختلفــة من الفاكهة • الأطباق • الأكواب وفناجين القهوة وفناجين الشاى • المفارش • المفارش التى تغطى موائد الطعام ، والمفارش التى تغطى المخادع • كنت وأنا أرى تلك الأشياء أتخيلها حية تتحرك ، وأتخيلها فى البيوت وعلى الموائد ، وأتخيل قطعة القماش التى تناسب أمك وقد تحولت الى ثوب وأتخليها وهى ترتديه ، وأتخيل « مخلص » وهــو يزهو بالحلة الجميلة بدلا من التمثال المصــنوع من الجبس الذى يرتديها ، وأتخيل ألوان الطعام المختلفة ، اللحوم والطيور والخضر والفاكهة ، على الموائد ، وأشم رائحتها وأتذوق طعمها • وكنت يا ابنتى أتخيل دائما تلك الفترينات بلا زجاج وبلا حواجز وأقفال ، وأتخيــل الناس وهم يتطلعون الى ما فيها ويمدون أيديهم ويأخذ كل منهم ما يعجبه وما يشتهيه بلا ثمن وبلا سؤال لأحد وبلا استئذان من أحد •

كنت يا ابنتى العزيزة قد نسيت نفسى وأنا أتطلع الى احــدى

الفترينات وقد عــرض فيها عشرات الأنواع ذات الأحجام والأشكال المختلفة من علب الملبس التى تقدم فى الافراح والتى تخصصت ايطاليا فى صنعها ••• وفجأة ، لم أحس الا بقطع ورق صغيرة حمراء وصفراء وزرقــاء وخضراء وبألوان أخــرى تغمر رأسى وتغطى سترتى • وتطلعت ورائى فرأيت طفلا يرتدى زيا عسكريا يحمل كيسا فى احدى يديه ويمد اليد الأخرى فيه ويملؤها بالورق الملون وينثرها على كل انســان يقابله • كانت أمه تسير وراءه ووجههــا يطفح بالســعادة وانفعالات الاعجاب والحب •

وتركت الفاترينات يا ابنتى وأخذت أسير وراء الطفل وأتبــع خطواته وأتابع النظر الى أمه • وبعد دقائق قليلة رأيت طفلا ثانيا ، وبعده طفل ثالث ورابع وخامس وبعدد لا يمكن حصره • أولاد وبنات كلهم فى عمرك ، وكلهم كانوا يرتدون أزياء غريبة ، روميو وجولييت عروس فى ثوب الزفاف ، ضابط فى البحرية ، وأزياء أخرى لم أكن أعرفها ولم أكن رأيت مثلها من قبل • كانوا جميعا يحملون أكيــاس الورق الملون وينثرونه على الرجال والنســاء الذين يقــابلونهم فى الطــريق •

كنت أحس يا ابنتى وأنا أنظر لهؤلاء الأطفال أن الحياة تولد أمامى ، وأن الحياة أصبحت جميلة وليس فيها الا الجمال ، واختفت منها القتامة التى كنت أحسها كلما رأيت الأطفال فى وطننــا • كنت أحس بأن هذا الشىء فى جسدى الذى نسميه القلب وهو ينمو ويكبر ويكبر ويكبر وكأنه يسع فى داخله كل الناس • كنت أحس بشىء فى داخلى يدفعنى الى أن أذهب لهؤلاء الأطفال وأحملهم الواحد بعد الآخر بين ذراعى وأضمهم الى صدرى وأقول لهم ، أن لى أبناء مثلهم فى

وطنى ، وأنى أتمنى لهم كما أتمنى لأبنائى حياة سعيدة • وأخذت يـا ابنتى طوال تلك الليلة أهيم فى شوارع روما بحثا عن الأطفال الذين يحملون أكياس الورق الملون ، وظللت أغير طريق سيرى لأقابل هؤلاء الأطفال وجها لوجه ، وأتلكأ فى السير حتى أقترب منهم وأكاد أقول لكل منهـم :

« ها أنا أمامك • ألا ترانى ؟ ــ أنثر على ورقك الملون » •

وعرفت بعد ذلك يا ابنتى أنهم كانوا يحتفلون بعيد ميلاد أحد القديسـين •

مولد طفل جديد • أعياد ميلاد الناس سـواء أكانوا كبارا أم صغارا والأعياد التى يحتفل بها كل الناس وفى كل مكان فى العـالم كلما ولد عـام جديد •

أتعرفين يا ابنتى أن الجنود فى الحرب يتوقفون عن القتـال ليلة ميلاد العام الجديد لقداسة تلك الليلة ؟ أتعرفين أنهم يتبادلون عبر الخنادق والمتاريس وبلغات مختلفة التهانى والتمنيات بعام سعيد جـديد • أن الجنـود يا ابنتى ينسون فى تلك الليلة المعـارك التى ستنشب فى صباح اليوم التالى ، والخطر الذى سيحدق بهم بعد ساعات ، ويظلون طوال تلك الليلة يغنون ويرقصون وكأنهم يؤكدون لأنفسهم بعد المجازر التى شهدوها واشتركوا فيها أنهم آدميون مثل كل الناس وأن الانسان لم يولد ليحارب ويقتل بل ليعيش ويكبر ويحب ويتزوج وينجب للعـالم أطفال •

ثلاث سنوات الى الوراء ••• لم يبق الا أيام قليلة وتأتى نفس

الذكرى ، ذكرى ليلة رأس السنة وميلاد العام الجديد ••• أتذكرين يا ابنتى ؟ أنا مازلت أذكر تلك الليلة وكأنى أعيشها من جديد ••••

مكتبى فى « دار الفكر » حيث كنت أعمل • الكل يعملون بلا توقف من الصباح الباكر لان شيئا جديدا علينا وعلى وطننا سيولد ويظهر الى الوجود بعد أيام • مكتب عمو حسن ينبض بالحياة والحركة • كان يا ابنتى فى تلك الأيام يحمل مسئولية كبيرة من نوع تلك المهام التى تعلق من أجلها نياشين البطولة والشرف على صدور الرجال • كان يتولى رئاسة تحرير مجلتنا الجديدة « الغد » التى كنا نعتبر أن ظهورها سيكون حدثا فى حياة وطننا وفى نشاطنا الثقافى • البروفات تصل من المطبعة وتنتقل بين أيدينا • النتائج الأخيرة للاستفتاء الذى اشترك فيه أكثر من ألفين من العمال والفلاحين والطلبة والناس البسطاء وحددوا ما يطلبونه من وزارة الثقافة ومن المثقفين لتكون ثقافة بلادنا معبرة عنهم وفى متناول أيديهم • النسخة الأولى من غلاف العدد الأول • بروفات القصة القصيرة التى كتبتها لهذا العدد وكانت بعنوان « أزمة كاتب » وكنت أعرض فيها المشكلة التى تواجهنا وتمنعنا من خلق أدب جديد يعبر بصدق عن حياة شعبنا وعن الواقع الجديد الذى أصبح شيئا آخر يختلف عن الواقع الذى كنا نعيش فيه منذ سنين • كنت أتحدث فى هذه القصة عن الاصلاح الزراعى والمجمعات التى تقام فى الريف والمزارع التعاونية ومصنع الحديد والصلب وأسوان والسد العالى • كنت يا ابنتى ومثل أى كاتب نزح من الريف الى المدينة ولم يعد يرى أو يزور القرية التى ولد فيها أو أية قرية أخرى من آلاف القرى التى تغطى وادينا الأخضر أبحث عن الطريق الذى يمكن رجال

الثقافة والفن من التعبير عن تلك الأشياء ومن أن نصور فى أعمالنا الانسان الجديد الذى يبنى تلك الأشـــياء •

الساعة وصلت الى العاشرة مساء والحركة ما زالت مســتمرة والأرجل ما زالت تروح وتجىء وكأننا نسينا جميعا أن تلك الليلة هى ليلة رأس السنة • كنت يا ابنتى منذ بدأت العمل فى الصباح أحس بأنى فى حاجـــة الى الراحة والى أن أعود الى البيت وألقى بجسدى على المخدع وأترك لعظامى وأعصابى الفرصة لتستريح • وشعرت بأنى لم أعد قادرا على الاستمرار فى العمل • كنا نغالط الزمن • اليوم عندنا كان يتحول الى عدة أيام • كنا ننجز فى ساعة واحدة ما ينجزه غيرنا فى ساعات • كنا معا مثل جيش من جيوش المؤمنين التى تحدث عنها القـــرآن والذى يساوى الجندى الواحد فيه عشرة أو مائة جندى من جيوش أخـــرى لا تحارب من أجل مبدأ أو عقيدة • كنـــا نحاول أن نسبق الزمن الذى كان يجرى بأقصى سرعة والذى لم يعد يسير سيرا طبيعيا ولم يعد يتوقف أو يتمهل فى خطواته كما كان يحدث فى فترات عديدة من حيـــاة وطننا • وكان هدفنا يا ابنتى أن نحول الأمنيات والأحلام التى عشنا عليها سنين طويلة الى أعمال والى حقائق حية • كان هدفنا أن نعوض السنين التى أنتزعت من حياتنـــا ونحن داخل السجن والتى حرمنا فيها من أن نحيا فوق سطح الأرض ونحن خارج أسواره • كنا نستهلك أجسامنا وعقولنا وحتى عواطفنا بلا رحمة وكأنها ليست أجسامنا وعقولنا وعواطفنا ، وكأنها تخضع لارادة أخرى غير ارادتنا • كانت كلمات الواجب والوطن والرسالة عندنا كلمات مقدسة • كانت مثل دين جديد آمنـــا به وأصبحنا على استعداد لأن نبذل حياتنـــا فى سبيله •

الساعة وصلت الى العاشرة والنصف ولم يعد فى استطاعتى أن أقرأ أو أكتب كلمـــة واحدة أو أفكر فى شىء • وحملت بعض أوراقى وأخذت أجر قدمى فى طريق عودتى الى البيت ، وأنا لا أدرى أنى لن أعود الى مكتبى مرة ثانية ، ولن أرى مرة أخرى هذا المكان الذى أحببته والذى عشت فيه أجمل أيام عمـــرى •

كانت ليلة من ليالى الشتاء • وكنت وأنا أسير فى طريقى أفكر فى المخدع الدافىء وفى أن أنام وأن أظل نائما دون أن يوقظنى انسان حتى أشبع من النوم وحتى أريح هذا الجسد الذى بدأ يئن ويشكو ويتمرد • ولم أكن أتوقع أنى سأراكم وقد اجتمعتم على المخـــدع تلتفون حول الست ماما وتنتظرون عودتى • ولم أكن أتوقع أنكم ستستقبلونى بتلك الصيحات ••• « جبتلنا ايه يا بابا عشان رأس السنة ؟ » • واكتشفت فجأة أن عيد الميلاد قد وصل الى بيتنا نحن أيضــا •

ونظرت أمك الى يدى الخاويتين الا من الأوراق والجـــرائد وقالت بصوت غاضب ينم عن الحسرة والألم •

« انت مش عارف أن الليلة عيد رأس السنـة ازاى تيجى من غير ما تجيب حاجــة حلوه للولاد ؟ » •

فرددت عليها بصوت غاضب وأنا أكاد أصرخ من التعب والانهاك ومن احساس بالانقباض كان يخيم على كيانى •

« ايه اللى منع حضرتك انك تجيبى حاجة حلوة • انت عارفـــه كويس انى ملخوم لشوشتى فى الشغل وكان ممكن مـــا ارجعش قبل الساعة اتناشر أو واحـــدة •

ونظرت اليك يا ابنتى ، ونظرت الى مخلص ونادية وأنتـــم

تتابعون الحديث الذى يدور بينى وبين الست ماما بعيون نصف مغلقة • وأحسست بأنى مخطىء • كنتم تتطلعون الى أن نأخــذ نحن أيضا ومثل كل الناس نصيبنا من السعادة فى ليلة رأس السنة • كنتم تتطلعون الى أن نجتمع نحن أيضا حول فناجين الشاى وقطع الحلوى • وحاولت أن أصلح خطئى وطلبت من مخلص أن يذهب لشراء دستة من الجاتوه • ونظر الى مخلص نظرة تحمل معانى عديدة• كان يضع البطــانية فوق ســاقيه ويخفى يديه تحتهــا • كان يقول لى بلا عبارات أتركنى أنعم بالدفء تحت البطانية وارحمنى من البرد القارس فى الشــارع •

وهبت أمك لانقــاذه

« الولد مش ممكن يخرج بره دلوقت • الدنيا برد وهدومه خفيفة والشوارع الليلة زحمة وليانه ناس »

لم يكن فى مقدورى أن أتراجع • ولم أجد أمامى الا أن أقبل تحدى الست ماما وأنزل بلهجــة المستعد لبدء النزاع من جديد ••

« قوم يا مخلص ـــ سيبك من كلام ماما ـــ البس الجاكته فوق البيجامة وروح شارع فؤاد ـــ انت عارف الأمريكين ـــ عشر دقائق تكون رجعت قبل ما اخواتك ينامــوا » •

واستنجد مخلص بأختك •

« قومى يا نادية نروح سوا » •

وتحولت المسألة الى نقاش بين مخلص ونادية • كان مصرا على ألا يخرج وحده • وكانت هى الأخرى مصرة على أن تبقى ناعمة

بالدفء ، تحت الغطاء • وأخيرا وبعد رجاء والحاح تمكنت من أن أجفف دموع نادية ومن أن أقنعها بمرافقة أخيها • وتخيلت وأنا أتابع خطواتهما فى الطريق مشاهد انسانية مماثلة رأيتها فى أفلام شابلن • طفلان يخرجان من بيتهما فى الشتاء بعد الساعة الحادية عشر ليلا ، وبلباس النوم ، والابن الأكبر يتأبط ذراع أخته ، وهما فى طريقهما الى أحد محال بيع الحلوى وعيونهما نصف مغمضة ويرتعدان من البرد ، وصور بابا نويل بأشكال مختلفة وأحجام مختلفة وألوان مختلفة تظهر متلاحقة أمامهما •

وأنت يا ابنتى العزيزة وقد غرقت فى النوم ، وأنا الآخر وقد خلعت ثيابى وارتميت على المخدع بجوارك ، ومخلص ونادية يعودان وهما يحملان صندوق الحلوى • وأنا أترك المخدع وأجلس على السجادة وأطلب من أمك أن توقظك فترفض ايقاظك • ومخلص ونادية وعيونهما قد أغلقت فعلا وهما يمسكان فى أيديهما قطع الجاتوه ••• لقد فشلت يا ابنتى ولم يكن أمامى الا أن أستسلم وأعتبر نفسى المسئول عن حرمانكم من الاحتفال برأس السنة ، وعن تحويل تلك الليلة الى شىء آخر لا يمت الى الأعياد بصلة • وتحرك مخلص وهو يترنح فى خطواته وأختك بجواره وذهبا الى حجرتهما وغرقا فى النوم بعد لحظات وبقايا قطع الحلوى ما زالت عالقة بشفاههما • وتركت صندوق الحلوى بما تبقى فيه على أرض الحجرة وأطفأت النور ، وارتميت على المخدع ولم تمض دقائق قليلة الا وكنت أنا الآخر غارقا فى النوم •

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل والناس يا ابنتى خارج بيتنا ما زالوا يضحكون ويغنون ويحتفلون بمولد العام الجديد • الساعة الثالثة بعد منتصف الليل يا ابنتى وملايين الرجال والنساء والأطفال

فى وطننا وفى بلدان العالم الأخرى ينامون فى ســلام •

تراك ــ تراك ــ تراك ــ تراك •

وكنت غارقا فى النــوم •

تراك تراك تراك تراك •

ومازلت غارقــا فى النــوم •

وأمتدت يــد أمك وهزتنى من كتفى واستيقظت على صــوت الطرقات وأنا أقول « فيه ايه ؟ »

كانت أمك قد جربت من قبل سماع مثل تلك الطرقات • كانت تعرف كيف تميزها من طرقات الضيوف والأصدقــاء •

وقالت لى أمك بحنق ومرارة •

« البوليس ــ البوليس »

وعادت الطرقات من جديد وصارت أكثر عنفا وكأنها ستحطم الباب أو تخلعه • وفى لحظــة واحدة ، وفى الظلام الذى كان يخيم على الغرفة وأنا مازلت ممددا تحت الغطاء ، أحس بجسدك الصغير الدافىء الراقد بجوارى ، عادت الى خيالى عديد من الصور التى كنت قد نسيتها وكنت أظن أنها لن تعود ولن تتكرر أبدا • ونهضت وأنا أشعر باحساس من الألم والمرارة يغمر جسدى كله ، القلب ، والضمير ، والشرف ، وهو جزء من كيان الانسان أيضا • وأضأت نور الحجرة ورأيت وجه أمك وقد تبدلت ملامحه ، وعلاه الشحوب ، وارتسمت عليه كل الأشياء التى كانت تتنبأ بوقوعها الطرقات العنيفة التى كانت مازالت تدق وتهز الباب وتهز البيت الساكن • وتحركت الى الباب وأنا أتذكر المرة الأولى التى سمعت فيها طرقات البوليس السياسى على بــاب

بيتنا • كنت لم أتزوج بعد وكان الموت بالرصاص فى المظاهرات أو فى معسكرات الفدائيين فى القنال أو قضاء السنين فى السجون يعتبر شرفا لأى مواطن • وكنا جميعا أنا والشباب من عمرى نعيش فى الخطر ونتوقع وقوعه كل ليلة • أما الآن ووطننا بلا فاروق وبلا صدقى وبلا انجليز وبلا اقطاعيين وبلا باشوات • ماذا حدث ؟ وزاد احساسى بالألم والمرارة وأنا أمد يدى وأقبض على أكرة الباب •

واندفعوا داخل البيت ، ضابط البوليس السياسى وهو يطبع على وجهه ابتسامة ميتة وكأنه يود أن يقول « اعذرنى للعمل الكريه الذى سأقوم به » وهو يعيش على هذا العمل الكريه طوال أيامه ولياليه • كونستابل ضخم الجثة غليظ القفا تتوسط رأسه صلعة كبيرة بيضاء ليست مستطيلة وليست كروية ، ويتدلى شعره الكثيف من الجانبين وينظر بعينيه بحركات آلية متتابعة الى الأمام والى اليمين والى اليسار نظرات متبلدة جامدة وكأنه يريد أن يشعرك بأنه قد رأى وفى لحظة واحدة وبتلك النظرات كل شىء ولم يعد هناك ما يمكنك اخفاؤه • ومن وراء الضابط والكونستابل اندفع ثلاثة من المخبرين •

وقال الضابط والابتسامة الباهتة لم تفارق وجهه •

« مساء الخير • اعذرونى ••• معنا أمر بتفتيش البيت » •

كانت المرارة تملؤنى • ولأول مرة فى حياتى أحسست بأنى غير قادر على أن أتكلم • لم أرد عليه • لم أقل له مساء الخير • لم أتذكر أننا مازلنا فى ليلة رأس السنة وأقول كما يقول الناس بعضهم لبعض حين يتقابلون وحين يتزاورون فى تلك الليلة « عيد ميلاد سعيد » •

كنت أحس احساس الانسان الذى استيقظ فجأة ، وفتح عينيه،

فرأى احدى المنازل تمثل أمامه . وحاول أن يضحك لما يرى فلم يقو ، وحاول أن يبكي لما يرى فلم يقو . ولم يشعر بنفسه ودون ارادة منه الا وقد اصبح جزءا من المهزلة وعليه أن يمثل أحد أدوارها .

لم يكن عندى ما أقوله للضابط . واقتدته الى حجرة الجلوس وطلبت منه أن يبدأ بتفتيش مكتبى وأوراقى . ومرة أخرى تكرر أمامى المشـــهد الذى رأيته مرات عديدة . لم يكن الضابط يفتش عن القنابل . ولم يكن يفتش عن البنادق وطلقات الرصاص . كـــان هدفه الكتب والأوراق . الكلمات المكتوبة بالأيدى والمطبوعة بحروف المطبعة . الأفكار التى تمرد بها الانســـان على واقـــعه منذ ولد ، والقصص ودواوين الشـــعر التى تحمل هذه المعانى لم تكن تفلت من نظراته ومن يديه . وكانت صورة أى انسان من هؤلاء الذيـــن صنعوا ثورات العالم تجعل الضابط ينظر الى الكتاب فى رعب ورهبة وتندفع يداه اليه وكأنه عثر على صندوق من الديناميت .

كنت يا ابنتى وأنا أتابع الضابط وهو يقلب الكتب ويتنقل بعينيه بين سطورها ويختار أحدها ويناوله للكونستابل الذى يقف بجواره أحس بقـــوة الكلمة وبقيمة الفكر الانسانى . كنت أسائل نفسى وأنا أنظر الى الكتب وأعود وأنظر الى الضابط .

« أهكذا ؟ ـــ وحتى اليوم ؟ وفى أيام تفجير الذرة وغزو الفضاء؟ أهكذا نعود ونشهد صور محاكم التفتيش والعهود السوداء المظلمة ؟ أهكذا ؟ وفى الأيام التى يعيش فيها وطننا بلا جنود احتلال وبلا ملك وبلا اقطاعيين ؟ » .

وقدت الضابط الى حجرتك أنت وأخويك وأضأت نور الحجرة . كان مخلص ونادية يرقدان فى نوم عميق . كانت بقايا قطع الحلوى

مازالت عالقة بشفاههما • كانا وكأنهما يحلمان ويريان فى أحلامهما بابا نويل وهو يحمل لهما الهدايا • ووقعت عينا الضابط على أخـــويك وانتقلنا الى المكتب الصغير الذى يستذكر عليه مخلص دروسه • وأخذ الضابط يقلب فى كتب مخلص وأوراقه • وأمسك فى يده ورقة أخذ يقربها الى عينيه ويتفحص ما فيها من خطوط • كان مخلص قد رسم فى تلك الورقة بالحبر الأسود صورة شارلى شابلن بالقبعة والعصـــا والشارب والحذاء والى جواره صورا أخرى لعصاته وحدها ولقبعته وحدها ولحذائه وحده • وأخذ الضابط يتطلع الى الرسوم وكأنه يحاول أن يكتشف أنها ترمز الى أشياء أخرى لها علاقة بالسياسة وتهديد أمن الدولة وقلب نظام الحكم •

أنت تعرفين عادات مخلص يا ابنتى وكيف يرتب أوراقه وكتبه وكراريسه • وكيف يحب أن يضع كل شىء بنظـــام معين وفى مكان معين • كان يحتفظ فى أدراج مكتبه بمجموعات من طوابع البريـــد وتذاكر السينما وأغلفة الكتب والصور والرسوم التى يقطعها من الصحف والمجلات والكروت الجميلة الملونة التى طبعناها عن تضامن شعوب آسيا وأفريقيا • كان يكتب الشعر دون أن يعرف شيئا عن الأوزان والقوافى • وكتب أول قصـــيدة بعد أول مـــرة زار فيها الاسكندرية ورأى شواطئها • وكتب قصيدة أخرى عن الفلاحين فى وطننا بعد أن زار قريتنا مع جدته • ورأيت الضابط وهو يحـــمل قصائد مخلص ويقرؤها كلمة كلمة • وصدقينى يا ابنتى أنى نظـــرت الى أخيك وهو نائم فى مخدعه واعترانى احساس بالخوف أن تصل المهزلة أو المأساة الى حد أن يعتبر الضابط ما كتبه مخلص خطرا على أمن الدولة يستحق من أجله السجن والمحـــاكمة •

وخرجنا من الحجرة ، وأحسست براحة كبيرة لأن « مخلص » ونادية ظلا نائمين ولم يحسا بنا •

وكانت الحجرة التى ترقدين فيها مع أمك هى الحجرة الباقية • وصمم الضابط على أن يفتشها هى الأخرى لأن الأوامر الصادرة اليه تقضى بتفتش كل ركن فى البيت ، وأفهمنى الضابط بالتلميح أن فى مقدوره أن يفعل الكثير وأن يوقظ الأطفال وأن يمزق المقاعد والمراتب ويخرج ما فيها • وفتحت باب الحجرة ورأس الضابط تسبقنى الى الداخل • ووصلنا الى الحجرة التى كنت ترقدين فيها مع أمك • كانت الست ماما واقفة ، وكانت تنظر الى نظرة من يحس بأنه لم يبق الا دقائق قليلة وأنتزع منها وتترك وحدها وهى لا تدرى فى أى يوم أو أية سنة سأعود • وقمت يا ابنتى مذعورة من فراشك ،ورفعت رأسك عن الوسادة ، وأخذت تتطلعين بنظرات الدهشة والفزع الى الضابط وأتباعه • كانت وجوههم غريبة عليك • وكانت نظرات عيونهم نحوك ونحو أمك ونحو كل شىء فى الحجرة لا تبعث على الطمأنينة • ووقعت عيناك على • وسمعتك يا ابنتى وأنت تسألينني بصوت هو الفزع وهو الخوف •

« فيه ايه يا بابا ؟ — مين دول يا بابا ؟ »

وطلبت منك يا ابنتى أن تنامى دون أن أجيب على سؤالك • ورميت رأسك على المخدع وغرقت فى النوم بعد لحظات • ولم تمض دقائق قليلة بعد ذلك الا وكنت أحمل فى يدى بيجامة وفرشة أسنان • وخرجت مع الضابط الى المصير الذى لم أكن أعرفه وأنا أوجه اليك والى أمك آخر نظرة •

لم أكن أتوقع أن يطلب منى الضابط أن أرتدى ثيابى • وحتى آخر لحظة لم أكن أظن أن المسألة وصلت الى حد أن يقبض على وأن أوضع فى السجن منجديد • لم أكن نائما أو واهما • لم أكن أحس بأنى فى حـلم •

كنت يا ابنتى أرى أمامى الواقع ولا أصدقه • وبدأت أدرك يا ابنتى أن شيئا ما لا يمكن أن يكون نظيفا قد حـدث فى وطننا ، وأن المسألة ليست مهزلة كما كنت أراها فى البداية ، بل هى مأساة ، ومأساة من النوع الذى جعل تلك الأبيات القديمة التى تصور وطنى ووطنك تدق فى أذنى وفى ضميرى بعنف وقـوة •

« وكـم ذا بمصر من المضحكـات

ولكنـه ضحك كالبكـا »

وظلت أمك تحبس الدموع وتحبس الكلمات • وخرجت من البيت يا ابنتى وأنا أتخيل سيل الدموع وهى تنهمر على وجنتيها ، وأتخيلك وأنت تستيقظين على صوت بكائها وتعودين الى تسـاؤلاتك وأنت تشاركينها البكـاء •

وخارج البيت ونحن نتجه الى عربة البوليس التى كانت تربض فى الظلام على بعد خطوات رأيت الأنوار مازالت مضاءة فى عدد من البيوت المجاورة لبيتنا • وسمعت أصوات بعض الناس • وسمعت بعض الضحكات • وحاولت أن ابتسم ففشلت • وأخذت واحساس بالمرارة يغمر كيانى وأنا أتخيلك وأتخيل « مخلص » ونادية والست ماما أردد بينى وبين نفسى « حقا ـ عيد ميـلاد سـعيد » •

* * *

— ٣ —

ثم مرة ساءلت نفسى خلال السنوات الثلاث الماضية « آية حياة تحيينها يا ابنتى أنت ومخلص ونادية والست ماما ؟ » •

فأنا لا أكاد أعيش معكم سنة أو سنتين وأحيانا عدة شـــهور حتى يقبض على وتبقون وحدكم بلا أب وبلا رجل فى البيت • الفلاح الذى يضع بذرة فى الأرض ، يرتبط بها ويظل يتتبعها ويرعاها يوما بيوم ، ويرى الأغصان وهى تورق والبراعم وهى تتفتح ، ويـــرى الأرض السوداء وقد أخذت لونا آخـــر ، ويرى اللون الأخضر وهو يتحول الى ألوان جديدة بيضاء وبنفسجية وصفراء بلون الذهب مع تفتح لوز القطن وظهـــور شواشى الذرة وسنابل القمح ، ويرى الشجيرات المحملة بالثمار وهى تهتز وترقص وتغنى مع هبوب الريح، الفلاح الذى يترك بيته مع شروق الشمس ويظل يعمل فى أرضه حتى تغيب فى الأفق البعيد يعيش مع زرعه ويتابع نموه يومابيوم،ويواجه المخاطـــر التى تهدده من الحشرات والديدان ، ويحس بحاجـــته للسماد وبعطشه للماء ، ولا يصاب بالدهشة أبدا حين يغيب عن حقله الساعات التى يقضيها فى بيته ويعود بعدها ويراه مع بزوغ فجـــر اليـــوم التـــالى •

أى فارق بين النبات الذى يخرج من الأرض والطفل الذى يولد من بين أحشاء أمه وضلوع أبيه ؟ أى فارق بين نبات تزرعه وتعرف مقدما أنك ستحصده لتجنى ثماره وبين الشىء الذى يولد فى كيانك ويظل جزءا منك طوال حياتك وحتى بعد مماتك ؟ أى احساس تحسه وأنت تبعد عن هذا الشىء رغما عنك سنة وسنتين وثلاثا وقد تصل الى عشر ثم تعود وتفاجأ برؤيته وتفأجا بأنه لم يعد كما كان حين تركته وبأنه كبر ونما وعرف الألفاظ وعرف كيف يقرأ ويكتب ويفكر ؟

ومثل ليلة عيد الميلاد واللحظة التى لا يمكن أن أنساها حين قمت فزعة من نومك ورأيت هذا المشهد الذى لا أتمنى لأية طفلة فى عمرك أن تراه ، مثل تلك الليلة يا ابنتى حدث نفس الشىء بينى وبينك وبصورة مختلفة وأنت فى الشهر الثانى من عمرك .

وها أنا أترك القلم ، وأمد ذرعى وأنظر اليه لأتخيلك ساعة مولدك . كان طولك أقل من طول نصف ذراعى . وكنت حين أحملك أحس بأنى لا أحمل جسما من لحم وعظام بل أحمل حزمة صغيرة من القش . كانت ملامحك لم تظهر بعد . ولن أكذب عليك وأقول أنى كنت أتوقع أنك ستكونين بهذا الجمال حين تكبرين . كنا أيامها نسكن فى بيت من حجرة واحدة وصالة كبيرة ، وننام كلنا على مخدع واحد ، أنا فى أحد جانبيه ، وأمك بجوارى ، وأنت تقبعين فى لفتك وتحتك قطعة من المشمع فى جانبه الآخر ، ومخلص ونادية تحت الرجلين ، أى بين أرجلنا فى الناحية الأخرى .

كنت يا ابنتى تسببين لى ازعاجا لم أكن أقوى على احتماله . كنت أعود الى البيت منهكا من العمل ولا أكاد أرتمى على الفراش وأغمض عينى حتى أسمع صيحاتك « واء ـ واء ـ واء » فتهب

أمك وكأنها تنتظر نداءك وتحملك بين ذراعيها وتضمك الى صدرها وتبدأ فى ارضاعك • كنت أصحو عدة مرات كل ليلة على صـوت صيحاتك • وفى أحيان كثيرة كانت أمك لا تستجيب لصيحاتك وتظل غارقة فى النوم • فى تلك الحالات يا ابنتى كنت لا أوقظ أمك اشفاقا عليها وأحاول أن أفعل معك نفس الأشياء التى تفعلها أمك باستثناء الرضاعة • كنت أحملك بين يدى وأهشكك وأقول وأنا أطبطب على ظهرك « هوه ــ هوه ــ هوه » وأضع البزازة فى فمك • ولم يحـدث مرة واحدة أن نجحت محاولاتى فى اسكاتك • كنت تستمرين فى الصياح « واء ــ واء ــ واء » فأضطر لايقاظ أمك وأقول لها وأنا أوقظهـا ••

« جمعه كمان والواحد يتجنن وينقلوه المورستان • مش معقول عيلة مفعوصة قد دى تطير النوم من عينى كل ليلة ••• »

وكانت أمك ترد على بعباراتها البسيطة واللاذعة فى نفس الوقت « أمال اللى زيى تعمل أيه ؟ أحمد ربنا انك اتولدت راجل لا بتغسل ولا بتكنس ولا بتمسح بلاط ولا بتروح السوق تشـترى العيش والخضار ولا بتطبخ ولا بترضع عيال ــ استحمل يا أخى ــ تكونش عاوز يجيلك عيـال جاهزين بيمشـوا وبتكلموا ويعرفوا عـربى وانجليزى كمان •

وكنت يا ابنتى كلما سمعت عبارات أمك ، وتذكـرت متاعبها طوال اليوم ، ومتاعبها معك أثناء الليل ، وصبرها الذى لا ينفذ أبدا وهى تتحمل تلك المتاعب ، لا أجـد أمامى الا أن أرمى رأسى على الوسادة وأسكت وأتحايل على النوم وأنا أفكر فى الشقاء الذى تعانيه المـرأة فى وطننـا •

لقد تحولت أمك الى شيء آخر غير الشيء الذى كنت أحلم به قبل أن نتزوج ••• فقد تزوجت أمك يا ابنتى وأنا أعرف قدر المرأة وأضعها فى مكان مقدس « المرأة نصف المجتمع • من حق المرأة أن تتمتع بجميع الحقوق التى يتمتع بها الرجل • المرأة يجب أن تختار الرجل الذى سيكون شريكا لها فى حياتها وأبا لأولادها • المرأة يجب أن تتحرر من سجن البيت وتشارك الرجل فى العمل وفى الراحلة وفى كل مسئوليات الحياة ومباهجها ••• » وشـــعارات أخرى كثيرة كنت أحفظها عن ظهر قلب وأرددها فى حديثى مع الناس وفى كتاباتى •

وكنت يا ابنتى وأنا أفكر فى المرأة أفكر فى الأطفال وأحلم لهم بالحدائق وبدور الحضانة ، وبمدارس بلا أسوار وبلا أبواب تغلق فى وجوه من لا يملكون ثمن العلم ، وبمستشفيات خاصة بهم تكفل لهم جميعا رعاية طبية منتظمة وتحميهم من الأمراض وتضمن لهم دوام الصحة ، وبلعب كثيرة وجميلة تسـليهم وتربى أجســادهم وعقولهم وخيالهم وتبرز مواهبهم • كنت أحلم لأولادى ولأطفال كل الناس بحياة جديدة ونظيفة ومشرقة تختلف عن تلك الحـياة التى عشتها وأنا طفــل •

وتزوجت أمك يا ابنتى وأنا مازلت أعيش على أحلام الحيــاة الجديدة التى كنت أظن أننا سنحياها معا • كنت كل ليلة وقبل أن أنام أضع البرامج وأفكر فى أشياء كثيرة وأتخيل أمك بجوارى ونحــن نعيش معا تلك الأشياء • نزهة أسبوعية فى النيل فى قارب صغير وأنا أجدف وأمك جالسة فى الناحية الأخرى وبيدها الدفة والزورق ينساب بين الأمواج ، والريح تداعب شعرها الذهبى ، وبسمة الرضا والبهجة تنفجر من شفتيها ووجنتيها وتغمر وجهها الطيب • رحلة الى الأقصر وأسوان وأنا وأمك فى ذراعى نرى معا آثار أجدادنا التى ما زالت

نسمع بجمالها الناس فى كل مكان فى العـــالم • يوم كامل فى بحـــيرة قارون • رحلة الى مرسى مطروح وقد سمعت أشياء خيالية عن جمال شواطئها ••• ساعات نقضيها فى الليل وأمامى فنجان القهوة وأمامها كوب الشاى والنقاش يدور بيننا حول أحداث وطننا وأحداث العالم وآخر ما قرأناه من كتب ••• وكنت أتخيل أمك يا ابنتى وقد أصبحت وبعد زواجنا شريكة حياتى حقا واليد اليمنى فى عملى • سأقرأ عليها ما أكتب من قصص قبل أن يراها أى انسان آخر وأستفيد من آرائها• ستدربها على الآلة الكاتبة لتعد انتــاجى الأدبى فى نســـخ جميلة وأتخلص بذلك من مشكلة خطى الذى يصفه بعض الأصدقاء بأنـــه أقرب الى حروف اللغة الهيروغليفية •

كنت يا ابنتى العزيزة وأنت فى الشهور الأولى من عمرك وكلما أيقظتنى من النوم أعود الى صور الماضى والأحلام التى كانت تطوف بخيالى قبل زواجى من أمك ، ثم أفكر فى الواقـــع الذى واجهته وعشته والذى واجهته أمك وعاشته • وكان الواقع يا ابنتى يختلف كل الاختـــلاف عن البرامج والصور التى رسمتها بخيالى • لقد تحول واقع أمك الى عمل متصل فى البيت ، فهى تقوم الى جانب دورها كأم بدور الغسالة والطباخة ومراقبة دار الحضـــانة والممرضة وبعديد من الأعمال الأخرى التى لا يمكن حصرها • لقد أدركت يا ابنتى وأنا أتابع حياة أمك بعد أن جاءت الى بيتنا الفارق بين الايمان بالأفكار والنظريات والدعـــوة لها وبين تطبيقها فى الواقع • وأدركت أيضـــا أن النهوض بحياة المرأة فى وطننا مسألة تتعدى حـــدود قـــدراتى وقدرات أمك لأنها ليست مشكلة بيتنا وحده • فأنا الذى كنت أسكن أيامها ومعكم جميعا فى شقة صغيرة من حجرة واحدة وصالة كيف كان يتأتى لى أن أحلم وليس فى الحى الذى نسكنه دار حضانة واحـــدة

أن أقيم لك ولأخويك دار حضانة خاصة بما تحتاجه من أثاث ومربيات واخصائيين • وأنا الذى كنت أحصل على تكاليف طعام البيت بشق الأنفس كيف كان يتأتى لى أن أحلم بأن أنشىء مطعما شعبيا يقدم لنا أغذية صحية ونظيفة وبقروش قليلة حتى تتمكن أمك من توفير الساعات التى تقضيها فى سوق الخضار وفى مطبخ البيت ، وحتى تجد الوقت الذى يمكنها من أن تعمل وتفكر وتأخذ نصيبها من الراحة• لقد أدركت يا ابنتى أن تحرير المرأة من عبودية البيت وتحرير الأطفال من المخاطر التى يتعرضون لها فى حياتهم لن يتم الا مع تحرير الرجال أنفسهم وتحرير مجتمعنا كله •

كنت لكل ذلك ، وأنا أحاول النوم ، وأستعيد ما قالته أمك ، أقول لنفسى •••

« معها كل الحق • كانت تحلم بأن ترى أشياء أخرى مثل تلك الأشياء التى كنت أحلم بها ففوجئت بعد أن تزوجت بأن وجدت نفسها مربوطة بلا فكاك بالمصير الذى رأت أمها مربوطة اليه والذى أضاعت أمى ربيع عمرها وخريفه وشتاءه وهى مربوطة اليه ••• »

وكنت يا ابنتى مع هذه الصور والأفكار التى تطوف وتدور بخيالى أتذكرك وأنت بين ذراعى أمك ، وأحس بأن الحياة التى ولدتنا ستلد بعدنا أجيالا أخرى ، وأن مصير تلك الأجيال سيكون أكثر اشراقا وأكثر سعادة من مصيرنا ، لان الأمنيات التى ولدت فينا ستظل تعيش وتكبر مع الأجيال التى ستأتى بعدنا •

ومرة أخرى يا ابنتى أجد نفسى مضطرا لأن اعتذر لك • فالذكريات والصور تختلط فى خيالى • وانفعالاتى نحوك ونحو أمك وأخويك تختلط بانفعالاتى نحو وطننا وهو الأسرة الكبيرة التى تجمع شعبنا كله • فأنا دائما ومنذ بدأت كتابة أول رسالة منى اليك أسرح

فى أشياء أخرى غير الأشياء التى كنت أنوى أن أتحدث معك عنها • لم أكن أنوى أبدا أن أكتب لك فى هذه الرسالة أنك كنت مصدر ازعاج لى بعد ولادتك • وصدقينى أننى لم أحس نحوك هذا الاحساس أبدا• كنت أنوى أن أكتب لك عن أشياء أخرى مختلفة كل الاختلاف وعن ذكريات جميلة حملتها لك فى الشهور الأولى من حياتك •

كنت يا ابنتى باختصار لعبتنا جميعا • فأختك نادية التى كانت فى الخامسة من عمرها كان يحلو لها أن تقلد أمك وتحملك بين ذراعيها وتضمك الى صدرها وهى تقول لك « هيه ــ هيه ــ نامى يا حلوة ــ نامى ــ نامى » • وأخوك مخلص كان يفتح فمك ويضع اصبعه بين شفتيك ويقول لك وهو يحاول أن يعلمك الكلام « قولى ــ با ــ با ــ با ــ با » وحين يجدك لا تقولين شيئا كان يكرر المحاولة ويقول لك « طيب بلاش بابا ــ قولى ــ ما ــ ما ــ ما ــ ما » • لقد كان يظن أن تعلقك بأمك سيدفعك الى الاستجابة لرجائه ويدفع لسانك الى أن يتحرك ويقول « ماما » • واعذريه يا ابنتى لانه لـم يكن يدرك أنك وأنت فى هذا السن لم يكن فى مقدورك أن تعرفى الا لغة « واء واء » بكافة أنغامها وطبقاتها والتى كنت تستخدمينها عندما تحسين بحاجتك الى أى شىء •

أما أنا فكان يحلو لى فى تلك الأيام أن أناغيك وأتحدث اليـك بلغة أخرى غير لغة الكلام • كنت أفرد أصابع يدى أمـام عينيك وأحركها الواحد بعد الآخر ثم أحركها كلها معا • وكنت أصفر وأحرك فمى وأمطه الى الأمـام • كنت أغمض عينى وأفتحها ثم أغمضـها وأظل أفعل ذلك وأنا لا أدرى سببا لما أفعل • كنت أقلد صوت طلقات المدافع « بم ــ بم » وأقلد مواء القطط « ناو ــ ناو ــ ناو ــ ناو »• وأقلد بعد ذلك هوهوة الكلاب وأظل أهوهو فى البيت « هاو ــ هاو ــ

هاو ــ هاو » . وكانت أمك تخدع فى كل مرة تسمع فيها هوهوتى وتجرى الى داخل الحجرة وهى تظن أن كلبا قد تسرب من البــاب ودخل الى البيت . كنت أضع اصبعى على شفتك السفلى وأفتـح فمك وأغلقه مرات عديدة وأنا أحس بسـعادة الطفـل الذى يلهـو بأحب لعبـة عنـده وأنا أرى لسـانك الصـغير وهـو يتحـرك فى فمك . كنت أكشر وأزوم وأحاول أن أخيفك ثم أضحك وأظل أضحك لأدفعك الى الضحك . كنت أتطلع الى وجهك فأراه واضحا بريئـا شفافا بلا تعرجات ولا خطوط مثل تلك التعرجات والخطـوط التى ترسمها الحياة على وجوهنا بانفعالاتنا لما فيها من أحداث ولما نراه فيها من خير وشر ومن شبع وجوع ومن طمأنينة وقلق . وتمكنت يا ابنتى من أن أخلق لغة مشتركة بينى وبينك وأحسست بسـعادة لا يمكن وصفها حين نجحت فى انتزاع أول بسمة من شفتيك .

ولن أنسى يا ابنتى وبعد أن بـدأ التعارف والحب بيننا تلك الليلة الأخرى التى انتزعونى فيها من البيت . فى تلك المرة لم تقومى فزعة من نومك كما حدث فى المرة الأخيرة . ولم يكن فى مقدورك أن تفهمى شيئا مما حدث فى البيت أو تعرفى سبب حزن أمك فى الصـباح التالى حين وجدت نفسها وحيدة بلا زوج ومن حولها أطفالها الصغار الثـلاثة .

كنت فى الشهر الثالث أو الرابع من عمرك وكانت ثورة يوليـو فى شهرها السابع . كنت تنامين الى جانب أمك بجوار الحائط وكانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وكانت الليلة من ليالى يناير القارسة البـرد . ووسط السكون الشامل أخذت الطرقات تدق بعنف على بـاب بيتنـا ...

« تراك ــ تراك ــ تراك »

وجاء بعد ذلك صوت أمك بما يحمله من فــزع وهى تهزنى من كتفــى ..

« البوليس ـــ البوليس »

فى تلك الليلة لم يكن الضابط فى حاجـــة الى أن يفتش البيت ويزعجك ويزعج أخويك ، ولم يكن فى حاجة الى أن يبحث بين أوراقى وكتبى عن الدليل الذى يثبت أنى أعمل للقضاء على حكم الاقطاعييــن والرأسماليين لينتقل الى أيدى العمال والفلاحين والناس البسطاء الذين يكدحون على أرض وطننا . كان نظام الحكم قد قلب فعلا وكنت أنا الجسد الكامل للجريمة الجديدة التى يبحث عنها . كنت أنا القاتل والقتيل فى نفس الوقت . الانسان . الانسان نفسه بعقله ومعتقداته وأحلامه وآماله وكل الأشياء التى تفرقه عن الحيوان وتضعه فى مرتبة الآدميين . الأشياء التى عاشت وظلت تنمو وتتطور فى أعماقنا آلاف السنين وورثها الابن عن الأب عن الجد وكل جيل من الأجيـــال التى سبقته . لم يكن هناك حاجة للبحث عن دليل وللتحقيق معى وتقديمى المحاكمة . كانت القائمة السوداء التى وضعتها حكومات فاروق مـــا تزال موجودة ، وكان الماضى الملىء بالتضحيات لخيرة أبناء شــعبنا ما زال يلاحقهم . لم يحصلوا يا ابنتى تقديرا لماضيهم على نياشين البطولة والشرف كما يحدث بعد كل ثورة ، ولم يسمعهم أحد كلمــة واحدة تعبر عن الشكر والتقدير والعرفان بالجميل . وكان الضابط الذى جاء لاعتقالى هو نفس الضابط الذى شهدته لأول مرة أيـــام صدقى السوداء سنة ١٩٤٦ ، وكان فى هذه المرة يحمل أمرا عسكريا باعتقـــالى .

وفى تلك الليلة لم يعطنى الضابط الا دقائق قليلة لأرتدى ثيابى . ولم تكن تلك الدقائق كافية لأقبلك وأقبل أخويك ، ولم تكن كافية أيضا

لأعبر لأمك عن العواطف والأحاسيس الأخرى التى كانت تجيش فى صـــدرى •

وظللت فى منفى « الطور » البعيد أكثر من سنتين حرمنـــا خلالهما من رؤية زوجاتنا وأولادنا • ونقلت بعد ذلك الى معتقـــل بالقاهرة وسمح لأمك بزيارتى • كانت تحمل فى حقيبة يدها مجموعة من الصور وأخذت تعرضها على واحدة بعد الأخـــرى • وعرفت « مخلص » وعرفت « نادية » ولم ألحظ أنهما تغيرا كثيرا عن الحالة التى تركتهما فيها • ثم رأيت صورة لطفلة تقف وحدها فى احـــدى الحدائق • كانت الطفلة فى غاية الجمـــال يا ابنتى ، نحـــيلة رقيقة وبوجنتين شفافتين تشع منهما البراءة والطيبة ومعان انسانية أخرى ليس فى مقدورى أن أصفها أو أحددها • وقلت لأمك •••

ـــ ميـــن دى ؟

وردت على بدهشـــة واستغراب

ـــ انت مش عارف مين دى ؟

ورددت عليهـــا

ـــ لازم بنت عمتك

وكنت أعرف أنكم تعيشون فى تلك الفترة فى بيت عمة أمك • وانتفض كيانى وتضاعفت دقات قلبى وأنا أسمع من أمك هاتـــين الكلمتيـــن •

ـــ دى بنتـــك

ـــ بنتى أنا ؟ ؟

ـــ دى أمك • انت مش عارف بنتك ؟

وعدت أنظر الى صورتك وأحـاول أن اسـتجمع ملامحك حين كنت أعرفك وحين تركتك فى البيت • لقد تحولت الى شىء آخر لم أره ولم أعرفـه • الفم المفتوح ، والبسمة الهادئة التى تخرج منه وتشع على الوجنتين ، وعيناك وهما تبرقان وتنظران الى بعيد ، وشـعرك الناعم بلون الذهب ـ لون شعر أمك ـ وهو ينساب من رأسك ويغطى أذنيك ويبدو كهالة تحيط بوجهك وتغمره بالنور ، وأكثر من ذلك رأيت أمامى الطفلة التى تركتها ملفوفة فى قطعة من القماش واقفة على قدميها ومن حولها الزهـور •

وطلبت من أمك أن تحضرك معها فى الزيارة التالية • وكانت آخر كلماتى لها وأنا أودعهـا •••

ـ اوعى تنسى تجيبى أمـل •

وظللت شهرا كاملا أترقب يوم الزيارة وأنا أحاول أن أتخيلك جسدا حيا بعد أن رأيتك كخطوط وظلال مرسومة على الورق • كنت أفكر بينى وبين نفسى • ماذا سأقول لك ؟ وعن أى شىء سأحدثك ؟ كنت أستعيد ذكريات الأيام الأخيرة التى أمضيتها معكم فى البيت ويهتز قلبى فرحا وأنا أحلم بأنى سأسمعك وأنت تقولين لى ودون أن يطلب منك مخلص ويلح عليك « بابا ـ بابا » • كنت أنوى أن أحملك بين ذراعى ، وأن أقذف بك الى أعلى ، وأن أتلقفك بين يدى وأضمك الى صدرى • وكنت أتخيل الست ماما وهى تنتزعك منى والفرحة تغمر وجهها لأن ابنتها التى كانت لا تعرف كيف تحبو أصبح فى مقدورهـا الآن أن تقف وتلبس الحذاء وتدق بقدميها على الأرض •

★ ■ ★

— ٤ —

وجاء يوم الزيارة يا ابنتى • لقد واجهت فى حياتى أحداثا كثيرة من النوع الذى لا يهز الرجال فقط بل يهز الجبال أيضا • لقد عرفت مثل سائر البشر الاضطراب والرعب والفزع والخوف ومع ذلك كنت أبدو دائما أمام الناس وحتى أمام نفسى وكأنى أتحمل بشجاعة كل ما أواجهه •

وصدقينى يا ابنتى أنى أحسست باضطراب لم أحسه من قبل حين سمعتهم ينادون اسمى للذهاب الى الزيارة فى مكتب الضابط • ونسيت كل الأشياء التى كنت أنوى أن أناقشها مع أمك • كنت أعيش فى أحاسيس اللحظة نفسها • سأرى أولادى لأول مرة بعد حرمانى من رؤيتهم أكثر من عامين • وسأرى ابنتى أمل التى تركتها وهى فى الشهر الثالث من عمرها والتى ولدت من جديد وأصبحت شيئا آخر غير تلك التى تركتها فى البيت •

ودخلت مكتب الضابط وعيناى تسبقاننى الى المكان الذى تجلسون فيه •• وحاولت أن أخفى اضطرابى وأنا أتجه اليكم • ورأيت أمك ورأيت « مخلص » ورأيت نادية وكانوا يقفون استعدادا

لاستقبالى • ووقعت عيناى عليك • وبهرت حين اكتشفت أنك أجمل بكثير من الصورة التى رأيتها • ومددت يدى نحوك لأحاول أن أرفعك عن الأرض وأضمك الى صدرى وأقبلك • وفوجئت بأن أجد يـــدى وقد ضمتا فى الهواء • لقد جريت يا ابنتى وانطلقت خارج الحجرة وكأنك تهربين من شىء يخيفك • وجرت أمك وراءك وهى تقول لك •

ــ دا بابا يا أمــل ــ بابا ــ اخص عليكى

ولم يقنعك الحاح أمك وتوسلاتها فحملتك بين ذراعيها رغمــا عنك وأمسكت رأسك لتمكننى من أن أقبلك •

كانت أمك تقول لك وأنت تحاولين الافلات من بين يديها •••

ــ عيب يا أمــل ــ دا بابا ــ مش دا بابا اللى كنت عــاوزه تشــوفيه •

وضاع وقت الزيارة فى محاولاتنا لاقناعك بالبقاء معنا • وترك الضابط مكتبه واشترك معنا فى تلك المحاولات • لقد تناسى موعــد انتهاء الزيارة ، وأغلق الباب ، ووقف وسط الحجرة وهو يمد ذراعيه مثل عسكرى المرور ليمنعك من الهروب منى • ووصل انفعال الضابط وتأثره الى حد أنه ركع بركبتيه على الأرض وأخذ يلهو معك وحاول أن يضحكك ••

وقال الضابط بكلمات مرتجفــة

ــ أنا زيك عندى تلات عيال وفيهم بنت قد العفريته دى ولكن مش حلــوة قوى زيها •

والغريب يا ابنتى أنك كنت تأنسين للضابط فى الوقت الذى كنت

تنظرين الى وكأنك ترين شبحا غريبا لا يمت بصلة الى العالم الذى نعــرفينه •

وخرجت من الزيارة يا ابنتى وأنا أحمل تعاسة انسان طعن فى قلبه • كان قلبى يدمى ولم يكن فى مقدورى أن أوقف تفجر الدماء منه وأن أبدو متماسكا أو سعيدا أمام الرفاق الآخرين الذين كانوا ينتظرون عودتى • لم أكن أتوقع أبدا أن ما حدث سيحدث • لــم آكن معدا للمفاجأة • لقد ضاعت كل الأحلام التى عشتها وأنا أترقب زيارتك • لم أفكر لحظة واحــدة فى وضعك كطفلة وقد تفتحت للحياة وأنت لا ترين أباك ولا تعيشين معه • وأخذت أفلسف المسألة مثلما نفلسف كل مآسى الحياة ونبحث لها عن أسباب • وفكرت فى نفسى يا ابنتى وفى الأشياء الكثيرة العادية فى حياة أى انسان والتى فرض على أن أحرم من ممارستها • واكتشفت يا ابنتى أن للحرية معــانى أخرى غير المعانى التى كنت أعرفها •

وكانت تلك الزيارة هى آخر زيارة • ومر عام آخر أمضيته فى سجون الوجه القبلى تنقلت خلاله من قنا الى أسيوط الى بنى سويف وكأنى جوال يحمل أغلاله ويرحل من سجن الى سجن • ومع بزوغ فجر باندونج أفرج عنى يا ابنتى وعدت الى بيتنا • كنت طــوال السنوات الثلاث التى أمضيتها فى السجن أحلم فى أشــياء كثــيرة سأفعلها حين أنعم بالحرية ويصبح من حقى أن أمشى فى الشوارع وأرى القمــر وأرى النجوم وهى تتلألأ فى الســماء وأرى الناس بالعشرات والمئات وهم يجلسون فى المقاهى ويمشون فى الشــوارع ويتبادلون الأحاديث • كنت يا ابنتى طوال تلك السنين الثلاث أحلم فى أشياء أخرى تخصنى وحدى ولا تخص أحد سواى • كنت أحلم فى

بيتنا وأتخيل رائحته وأكاد أشمها من بعيد ، وأتخيل الساعة التي ساعود فيها ، وأرى نفسى وأنا أصعد درجات السلم ، وأخرج المفتاح من جيبى ، وأفتح الباب ، وأندفـــع الى الداخل ، وأعبر الصالة ، وأصل الى غرفتنا ، وأفتح بابها وأراك أنت وأخويك تلتفون حول الست ماما ، وأرى الفرحة على وجوهكم وأنتم تفاجئون بعودتى •

وعدت الى البيت يا ابنتى واستقبلت بفرحة أنستنى كل الآلام والجراح التى كانت ما تزال تدمى في جسدى • لقد غسلت دمـــوع وقبلات الست ماما ومخلص ونادية التى اختلطت بدموعى وقبلاتى آلام السجن وآلام الحنين والتعطش للعودة الى بيتنا • أما أنت يا ابنتى فقد ظللت واقفة وحدك بعيدا عنا تنظرين الى باستغراب ودهشة • وحاول مخلص أن يجذبك نحونا ، وظللت تقاومينه ، ثـــم أخذ يشدك من يدك فسقطت على الأرض وانفجرت باكية • ولم يترك استقبالك لى بهذه الصـــورة نفس الأثر الذى تركته زيارتك لى فى معتقل القاهـــرة • الانسان السعيد يا ابنتى لا يبالغ فى آثار الأشياء التى تؤلمه على نفسه • أنه يواجهها بثقة وأمـــل فى أنه سيتمكن من حلها فى المســـتقبل •

لقد كانت السعادة تغمرنى فى ذلك اليوم وفى الأيـــام القليلة الأولى التى جاءت بعده • لم يكن الهواء هو نفس الهواء ، ولم تكن الشمس هى نفس الشمس ، ولم أكن أرى القمر فرأيته ، ولم يكن أبدا بهذا البهاء ، ولم يحدث فى حياتى أن بهرت وأنا أتطلـــع الى النجوم وهى تتلألأ فى السماء كما بهرت بها فى تلك الأيام • لقـــد تغير كل شىء • حتى الناس فى بلادى لم يكونوا بنفس الصورة التى تركتهم فيها • كنت مثل أهل الكهف وكأنى لم أغب عن القاهرة ثلاث

سنوات فقط بل غبت عنها عشرات السنين • لقد شهدت ليلة ٢٣ يوليو وشهدت أيام خلع فاروق وعشت الأيام المجيدة التى وجهت فيهـا الضربات الى كبار ملاك الأراضى • ومع ذلك فقد كانت القاهرة التى تركتها فى يناير ١٩٥٣ ما تزال عاصمة دولة الاقطاعيين والرأسماليين• لم تتح لى الفرصة يا ابنتى لارى بعينى قبل أن أسجن آثار قانون الاصلاح الزراعى وقد ظهرت فى حيـاة الناس •

وبعد خروجى من السجن يا ابنتى ولأول مرة فى حياتى أحسست بأن المرأة فى وطننا قد تحررت من البيت وخرجت الى الشارع ، وأن الاصلاح الزراعى وانهاء سيطرة الاقطاعيين قد نقلا المرأة ونقـلا مجتمعنا كله الى مرحلة جديدة • أزياء النساء التى رأيتها وكأنى أراها لأول مرة جعلتنى أحس بأن المرأة فى بلادى قد شقت طريقها فعلا الى الحياة الجـديدة التى ظلت حلما لها ولنا سنين طـويلة • البلوزات والجونـلات والفسـاتين الجميلة التى تنـم عن الذوق والبساطة • لم أكن أرى من قبل نساء يرتدين البلوزات والجونلات الا فى شارع فـؤاد أو شارع قصر النيل أو غيرهما من الشوارع الكبيرة • لم أكن أرى نساء وفتيات الحى الذى نسكنه وهن يرتدين مثل تلك الأزياء • والأحمر والأبيض والأصباغ الأخـرى التى كانت تلطخ الوجـوه اختفت وظهرت البشرة البيضاء أو السمراء التى تبرق بالجمال والصحة والحيوية • والأجسام الملآنة المترهلة أو كتل اللحم والشحم التى كانت تهتز وتترجرج ويتصبب منها العرق لم تعد كما كانت • لقد رأيت يا ابنتى المرأة وهى تخرج الى الشـارع وتذهب الى المصانع والشركات والبنوك ودور الصحف والى كـل مكان فيه عمل وفيه انتاج • الأزياء الجـديدة البسيطة والجميلة ـ

القوام الممشوق ، والمشية الثابتة التى تعرف أن هدفها العمل وليس التسكع • والحرية وهى تظهر على وجه المرأة وفى خطواتها • لقــد رأيت كل ذلك يا ابنتى ، وأحسست حين رأيته بأن شيئا جــديدا فى وطنى قد ولد أثناء غيبتى • ولم أكن أعرف فى الأيام الأولى أن أشياء أخرى عظيمة وباهرة قد ولدت فى تلك الفترة القصيرة مــن حيــاة شــعبنا •

كنت يا ابنتى وفى الأيام والأســابيع الأولى بعد خروجي من السجن أتحسس طريقي وأبحث لى عن مكان فى هذا الوطن الجديد • كانت هذه هى المشكلة الأولى التى واجهتنى • وكانت هناك مشاكل أخرى معقدة وملحة فى نفس الوقت •

كانت أولى تلك المشاكل المشكلة التى تواجهنى كلما استيقظت من النوم ، وكلما عدت الى البيت لتناول الغــذاء ، وكلما اجتمعنا كأسرة حول مائدة الطعام أو فى احدى الحجرات فى المساء • كانت تلك المشكلة يا ابنتى هى الأزمة القائمة فى العلاقة بينى وبينك • كنت كأب ، وكأب حرم من الحياة مع أولاده ثلاث سنوات طوال فى حاجة الى اعترافك بى • كان الألم يحز فى نفسى كلما رأيتك تبعدين عني وتنفرين منى وتنظرين الى نظــرة المستريب أو الخائف • كنت على استعداد لأن أفعل أى شيء لأنتزع منك كلمــة « بابا » وكانت أمك هى الأخرى تحس بالمشكلة وتتألم من أجلك ومن أجلى كلمــا رأتك وأنت واقفة بعيدا عن أى مكان أوجد فيه ، وكلما رأتنى وأنا أنظر اليك وتعابير الحيرة والألم بادية على وجهى • كنت أحملك رغمــا عنك ، وأضمك الى صدرى ، وأقبلك فى وجنتك اليمنى ، ثم أقبلك فى وجنتك اليسرى ، ثم أعود وأغمر وجهك كله بقبلات ليس لها حصر •

وكنت يا ابنتى حين أحس بأنى ارتويت وبأنى عوضت بعض الشيء القبلات التى حرمت منها أثناء غيبتى أطلب منك أن تقبلينى وأقرب وجهى من شفتيك فترفضين وتبعدين رأسك عنى •

وكان مخلص يتتبع كل ما يحدث بينى وبينك ، ويحس بحرجى وأنا أكاد استجدى القبلة منك ، فيأتى لنجدتى ويقول لك ••

ـ اخص عليك يا أمل • بوسى بابا ـ دا بابا بيحبك •

وحين كنت تصرين على الرفض كان مخلص يقترب منى ويحتضننى بين ذراعيه فأرفعه عن الأرض ويظل يحتضننى بعنف وهو يقبلنى قبلات طويلة حارة •

كانت أجمل الأوقات التى أقضيها فى البيت هى الساعات التى أظل فيها نائما على الفراش أيام الجمعة • كان مخلص ونادية لا يذهبان الى المدرسة فى تلك الأيام • كانا يدخلان الى حجرتى وينامان على الفراش بجوارى ويطلبان منى أن أحكى لهما حكاية • وأحاول أن أتذكر شيئا من الحكايات الكثيرة التى سمعتها من أمى فتخوننى ذاكرتى ولا أعرف كيف أتصرف فى الشاطر حسن وكيف أزوجه من ست الحسن والجمال • وكنت فى أغلب الأحيان أكمل الحكاية من عندى وأضيف اليها أحداثا لم يكن من الممكن أن تحدث فى تلك الأيام الماضية • كنت أتوقف عند موقف معين وأبحث فى ذهنى عن الخطوة التالية فأحس بأن ذهنى قد توقف عن الحركة ، وأحاول أن أبحث عن شيء آخر غير الحكايات والحواديت أشغل به أخويك • كنت أحس فى تلك الأوقات بحاجتنا الشديدة الى أدب للأطفال ، بعيد كل البعد عن الخرافات والأوهام واثارة الفزع ، نابع من

واقعنا وتاريخنا ، ويصور أبطالنا ، ويبعث فى الأطفال الأفكار والمثل التى تنبض بحب البناء والعمل وبحب البشرية والخير والسلام • كنت يا ابنتى فى حالات عجزى عن متابعة أحداث الحدوتة أو الحكاية أنتحل أى عذر وأعد أخويك بأنى سأكمل البقية فى المســاء فيلحــان على لتكملتهــا •

ــ والنبى يا بابا ــ والنبى تقول عمل ايه بعد كده •

فأتذكر يا ابنتى ما يحدث فى المقاهى التى ما زال يوجد بعضها فى قرانا وفى أحيائنا الشعبية ، والتى ينشد فيها الراوى أو الشاعر على أنغام الربابة قصــة « أبو زيد الهلالى » أو « الزناتى خليفة » ، ويثور عليه رواد المقهى حين يتوقف عن الانشاد تاركا « أبو زيــد » فى أحد المآزق • ويصل الوضع الى حد أن يحلف أحد الرواد بالطلاق من بيته اذا أغلق المقهى وأبو زيد ما زال تحت رحمة أعدائه وفى قبضتهم • ويضطر الراوى الى أن يتابع الانشاد ، وتعود أنغــام الربابة ، وتعود المعارك بالسيوف وعلى ظهور الخيل حتى يخــرج أبو زيد ظافــرا منتصرا •

وفى أحيان كثيرة كان أخواك يسألاننى عن السجن وكيف كنت أقضى وقتى فيــه • كانا يتوقعان أن يسمعا منى أكثر القصص غرابة واثارة • وكنت يا ابنتى فى كل مرة أدخل فيها السجن أو المعتقــل وأخرج الى الحرية أرفض الحديث عن الحيــاة التى عشتها وراء القضبان • لقد عانيتها وشربت كأسها المر حتى آخر قطــرة وكنت أحس كلما تذكرتها أو تحدثت عنها أنى أعيشها وأشرب كأسها مــن جديد • حتى الأشــياء التى كنت أحلم بها فى ليالى السجن الطويلة

وكنت أتلهف الى اليوم الذى سأخرج فيه لأحققها كنت أتركها على عتبة الباب قبل أن أدخـــل الى بيتنا •

كنت يا ابنتى أحلم فى رؤية أماكن اكتشفت حين أصبحت مقيد الخطوات أنى لم أرها ، وأنها ستكون خسارة كبيرة لى اذا مت قبل أن أراها • ان المؤمن يموت مطمئنا اذا حج الى الكعبـــة وزار قبر النبى ، وأنا يا ابنتى كنت أحس أنى لن أموت مطمئنا اذا لم أر بعينى بلادى الواسعة كلها • طبيعة بلادنا يا ابنتى التى لم تصور بعد فى القصص وقصائد الشعر وأفلام السينما • الاشـــجار بأنواعهـــا وأشكالها المختلفة • لون السماء المتميز فى كل مكان ، وقد كنت أظن قبل ذلك أن سماء بلادنا بلون واحد لا يتغير • النيل وهو يندفع وينساب من منبعه ومن حوله وحيثما يجرى الحدائق وآلاف الأفدنة وقد زرعت بالقمح والذرة والأرز والقطن والفاكهة ومحاصيل عديدة أخرى تخرج من تربة بلادنا الدائمة الشباب والقادرة على أن تلد ثلاث مرات فى السنة الواحدة • والزهور الجميلة بألوانها العديدة فى الحـــدائق وعلى شواطىء النيل وفى أطراف الحقـــول •• وزوارق الصيد فى البحيرات ••• وأدغال البوص ••• والناس فى بـــلادى يا ابنتى ••• الناس فى المدن وفى آلاف القرى وفى أماكن عديدة لم أرها لها تاريخ ولها عند شعبنا ذكريات تمتد الى آلاف السنين • والحياة التى تموج فى كل ركن من أركان بلادى ، والتى لا يمـــكن أن يحسها الانسان وتتفاعل فى كيانه ويعبر عنها دون أن يراها ودون أن ينبض قلبـــه بحبها •

كنت يا ابنتى أحلم بأن أجوب بلادى وأنا أحمل فى يدى حقيبة صغيرة بها ملابسى وعدد كبير من الأوراق البيضاء لأســـجل عليها

ملاحظاتى • وحتى هذا الحلم الذى كنت أعتبر أنه سيكون نقطة تحول فى حياتى ظل هو الآخر حلما يعيش فى كيانى ويجعلنى أعد بقلق وخوف ما تبقى من سنى عمرى • لم يكن فى استطاعتى أو فى استطاعة أى انسان آخر وطوال السنين الأخيرة التى عشتها خارج السجن أن يترك الخطر الذى يهدد بلادنا ويحمل حقيبته ليجوب فى طول البلاد وعرضها • لقد أعلن عبد الناصر تأميم القنال يا ابنتى وجاء العدوان الثلاثى على أرضنا وتوالت بعده المؤامرات • ولم يكن أمامى الا أن أتصرف كمواطن يحب وطنه وأن أنضم الى الصفوف الطويلة التى وقفت لحمايته •

وهكذا ترين يا ابنتى أنى تركت خارج باب بيتنا حين دخلته لأول مرة بعد خروجى من السجن كل الأحلام التى عشت عليها ثلاث سنوات طوال • أمنية واحدة لم يكن فى مقدورى أن أتخلى عنها ولم يكن فى استطاعتى أن أنساها وكانت تلاحقنى كلما رأيتك ••• أن تبادلينى يا ابنتى الحب الذى يحمله قلبى لك ، وأن تقبلينى كما أقبلك ، وألا يستمر هذا الوضع الذى يحرجنى أمام أخويك وأمام أمك والذى يشعرنى بأن جريمة من نوع غير انسانى قد ارتكبت فى حقك وأنى أصبحت المسئول أمامك عن تلك الجريمة •

كنت قبل أن أعود الى البيت أشترى قطع الحلوى وأتعمد حين أوزعها عليكم أن أعطيك نصيبك قبل أخويك • وكنت أرى بسمة الرضا والسعادة على وجهى مخلص ونادية أما أنت يا ابنتى فكنت أرى على وجهك نظرة الريبة والخوف التى شهدتها لأول مرة يوم زيارتكم لى فى المعتقل • كنت أجلسك بجوارى ثم أحملك وأضعك على ركبتى • وأظل أحدثك عن الأشياء التى كنت تفعلينها وأنت

صغيرة • كنت أحاول أن أعيدك الى الأيام الأولى التى رأيت فيهـا نور الحياة ورأيت فيها وجهى لعلك تتذكرينه • وكانت أمك حيـن ترانى أبالغ فى الاهتمام بك وملاحقتك حيثما تذهبين تقول لى بصوتها الطيب •••

ــ كلها أسبوع وتأخد عليك • طيب هاودنى وسيبها يوم واحد من غير ما تسأل عنها وهاتشوف ازاى هاتجيـك وتدوشك أكثر من اخواتهـا •

وكانت أمك يا ابنتى تشدك من يدك وتجلسك فوق سـاقيها وتضمك الى صـدرها وتقول لك •

ــ كدا يا أمـل ــ مش ده بابا اللى كنت بتقولى انك عاوزة تشوفيه • أنا ما عدنتش هاأكلمك أبدا الا اذا رحت لبابا وبستيه من هنا ومن هنا وقلت له أنا با أحبـك •

وكانت أمـك وهى تقول لك تلك الكلمـات تشير الى وجنتيها •

ولن أنسى يا ابنتى ذلك اليوم من أيام الجمعة الذى أمضيتيه فى البيت بعد أسبوعين أو ثلاثة من خروجى من السجن • لقد تناولت افطارى وشربت القهوة ومددت جسدى على الفراش وأخذت أتصفح جريدة الصباح • وجاء مخلص ومد جسده بجوارى ، والتصقت رأسه برأسى • وأخذ هو الآخر ينظر الى الجريدة ويقرأ العناوين بصوت مرتفع • ثم جـاءت نادية ونامت هى الأخـرى بجوارنا • وتركت الجريدة ورميتها على أرض الغرفة وأخذنا نلعب معا • وصاحا فى صـوت واحـد •

ـ عوزين نلعب حجة حجيجه •

ولف مخلص ذراعيه حول ركبتى وأخذت أنطر جسده الى أعلى ثم أعيده ثانية وأعود وأنطره وكأن ساقى قد تحولتا الى مرجيحه آدمية • كنت أقول وأنا أتابع حركة قدمى صعودا وهبوطا •

ـ حجح حجيجه والكعبة ورسول الله •

وكانت أختك نادية تهزنى من كتفى طوال الوقت وهى تقول •

ـ وأنا كمــان يا بابا •

فأترك « مخلص » وأحملها بدلا عنه ، ثم أعود وأستجيب لالحاح مخلص وأترك نادية ويعود هو يلتف حول ركبتى وأبدأ معه حجة حجيجة من جديد وأنفاسى تلهث والعرق يتصبب من صدرى ومن وجهــى •

كنت يا ابنتى أراك وأنت تفتحين علينا باب الحجرة ، ثم أراك وأنت تدخلين رأسك وتنظرين الينا ونحن نلعب ، ثم تتقابل نظرات عينى مع نظرات عينيك ، ثم أرى احساس الارتباك والخوف وهــو يعود اليك ، ثم أسمع صوت الباب وهو يغلق من جديد •

كان مخلص يناديك كل مرة ويقول لك •

ـ تعالى يا أمــل ـ تعالى العبى معانا •

فى ذلك اليوم يا ابنتى لم نترك لعبة من اللعب التى يلعبــها الأطفال مع بعضهم ، أو التى يلعبها الآباء مع الأبنــاء الا ولعبناها معا • لقد قلدت لهم أصوات الخراف والمعيز والكلاب والقطط • وأكثر

من ذلك يا ابنتى ، لقد ارتميت على الأرض ورفعت ظهرى الى أعلى ، وجعلت من نفسى حمارا ركبه مخلص وركبته بعد ذلك نادية ثم ركباه بعد ذلك معا ، وأخذت أتحرك وأمشى بهما فى حجرتنا ثم قادانى الى الصـــالة الكبيرة وهما يهزان أرجلهما ويضربانني على ظهرى ويقولان لى « شى ـــ شى » •

ونا داك مخلص وأنا أمر بجوارك •

ـــ تعالى يا أمـــل • تعالى أركبى بابا معانا •

وجاءت اللعبة الأخيرة •••

كنت أقبض على يدى مخلص وأنطره الى أعلى ثم أعيده الى الأرض ثم أعود وأنطره مرات أخرى حتى أحس بأن ذراعى لم تعودا قادرتين على حمله • وبعد دقيقة أو أقل أجد نادية واقفة أمامى مادة يديها فى انتظار دورها • وكنت يا ابنتى أفعل معك نفس الشىء بعد أسابيع قليلة من ولادتك ، وكانت أمك تنتزعك منى كل مرة وتتحدث وهى ثائرة غاضبة عن عظامك التى مازالت طرية وعن ذراعيك اللذين سأجدهما يوما وقد انتزعا من جســـدك •

فى ذلك اليوم يا ابنتى ، وفجأة ، وبلا مقدمات ودون أن أطلب منك ، ودون أن يناديك مخلص ، وبعد أن انتهى دور نادية ، رأيتك واقفة أمامى تمدين ذراعيك نحوى وتعابير الخوف قد اختفت من وجهـــك •

ومنذ تلك اللحظة يا ابنتى تعارفنا من جديد ، وأصبحت مثـــل مخلص ونادية تنامين بجـــوارى وأنت مطمئنة ، وتستجيبين لى حين

أطلب منك أن تقبلينى ، وتردين على حين أسألك « أنا مين يا أمل » ؟

ـ أنت بابــا .

ـ وبتحبينى يا أمــل .

ـ أيوه با أحبك يا بابــا .

ـ وبتحبينى قــد ايــه ؟

ـ بحبك قد ماما وقــد الدنيا كلهــا .

ومنذ تلك اللحظة يا ابنتى وأنا أحبــك حبا يختلف عن حبى لأخويك ، فحبى لك فيه شىء آخر غير حنان الأبوة وغير السعادة التى يحسها الأب حين يرى ابنه وهو ينمو ويتفتح . ان حبى لك يا ابنتى فيه الاحساس الذى لم يفارقنى بأنك حرمت فى حياتك مــن شىء لا يمكن تعويضه أبدا ، وليس فى استطاعتى أو فى مقدور أى انسان أن يعيده اليك . ان هذا الاحساس يا ابنتى هو الذى يجعلنى أسائل نفسى كلما فكــرت فيك وفى أخــويك .

« أية حياة يحياها هــؤلاء الأولاد » .

* * *

— ٥ —

لقد شعرت بالراحة يا ابنتى بعد أن شرحت لك الظروف المعقدة التى أحاطت بالعلاقة بينى وبينك ، وكيف وصلت الى الحد الذى كان يجعلك تنكرين أبوتى ، وكيف عادت الى الصفاء والحب ، وتعدت بعد ذلك العلاقات العادية بين الآباء والأبناء ووصلت الى الاعزاز الكبير الذى أحمله لك فى قلبى • وقد استرحت أيضا يا ابنتى بعد أن انزاح عن صدرى احساس الألم والمرارة الذى كان يلازمنى كلمـــا فكرت فيك وبدت أمامى صورتك يوم استيقظت مذعورة من نومك فى تلك الليلة التى أنتزعت فيها من بيتنا • كنت أفكر يا ابنتى كأب فى وسيلة تطمئنك وتشعرك بأن ما حدث فى بيتنا فى تلك الليلة ليس الا شيئا من مخلفات العهود السوداء المظلمة التى عانتها مصر ســـنين طويلة • وكنت أود أن أوضح لك أننا الآن وعالمنـــا الذى نعيش فيه فى سبيل محو تلك الأشياء ليتمكن الانسان من أن ينام على فراشه وهو مطمئن مستريح البال • كنت أخاف يا ابنتى أن يتحول المشهد الذى وقعت عيناك عليه الى شبح يلاحقك طوال حياتك ويفزعك فى يقظتك وفى منامــك •

فأنا لا أنسى أبدا ما حدث لأمك بعد القبض على فى المرة الأولى بعد زواجنا • لقد أخفت عنى كل شيء • وحتى اليوم ، وبالرغم من السنين الطويلة التى مرت ، وبالرغم من الأحاديث الطويلة التى كانت تدور بينى وبينها والتى كان يحلو لها أن تسردها على وكأنها قائمة حساب تقدمها الى كل يوم ، بالرغم من كل ذلك يا ابنتى ظلت أمك تتحاشى ذكر ما حدث لها وتخفيه عنى • لقد عرفت ما حدث من أمى ومن بعض الأصــدقاء • لقد أصيبت أمك يا ابنتى بحالة غريبة بعد القبض على • لم تكن قد جربت مواجهــة مثل هذا الموقف من قبل ولم تكن تفكر أبدا وهى تعيش فى بلدتنا أنها ستواجه فى حياتها مثل هذا الموقف • كانت تصحو فزعة من نومها وتضم « مخلص » الى صدرها وتترك الفراش وحجرة النوم وهى تصرخ وتصيح بأن رجال البوليس يملئون الحجرة ، وأنهم جاءوا هذه المرة للقبض على مخلص وانتزاعه منها • وكان أخوك يا ابنتى ، وهو مازال طفلا يحــبو ، لا يدرى سببا لفزع أمك وصراخها ، ولا يدرى شيئا عما يدور حوله • ومن أجل ذلك يا ابنتى ، وحتى لا يتكرر معك ما حدث لأمك كان أول ما فكرت فيه بعد وصولنا الى الواحات أن أكتب لك هذه الرسالة وأن أعود الى ذخيرة الذكريات التى أحملها لكم •

أنت تعرفين الجمل يا ابنتى • لابد أنك قد سبق أن رأيته فى الشارع أو رأيت صورته فى كتاب المطالعة الذى تدرسونه فى المدرسة• انى أبتسم وأكاد أسخر من نفسى وأنا أسألك عن الجمل وهل سبق أن رأيته لأنى أتذكر هؤلاء الذين يعيشون فى بلاد أخرى ويدعون أنهم يعرفون شــعبنا وتاريخه وما زالوا يضعون الجمل كرمز لحياتنــا وحضارتنا • ان الصفة الملازمة للجمل يا ابنتى والتى تعلمتها وحفظتها من كتاب المطالعة حين كنت طفلا فى عمرك هى أنه حيوان أليف فى

مقدوره أن يختزن كميـــة كبيرة من الماء تكفيه أياما طويلة ، لهـــذا يطلق عليه سفينة الصحـــراء • والجمل لهذا السبب هو الحيوان الوحيد القادر على أن يعبر مسافات طويلة وسط الرمال دون أن يشرب قطرة ماء واحدة • هل فى مقدورك أنت أن تعيشى يوما واحدا بلا ماء ؟ • ان الانسان ومنذ عدد من السنين ليس فى استطاعتى أن أحدده لأنه يبدأ منذ وجوده على هذه الأرض ظل يبحث عن مجارى الأنهار حيث يوجد الماء الذى يشربه والذى لا يمكن أن يعيش بدونه حيوان أو نبات • وحول مجارى الأنهار تعلم الانســـان كيف يزرع الأرض ويســـتقر ويبنى حياته • وهـــكذا يا ابنتى العزيزة بزغت أقدم الحضارات مع نهر النيل وهو يتدفق ويجرى منذ آلاف السنين فى أراضينا ويترك من حوله حيثما يذهب الخير والبركـــة والخضرة اليانعة • وهكذا يا ابنتى كانت حضارة بلادك هى الحضارة الأولى التى أشرقت بنورها على العالم كله • ان النيل بمائه الذى يتـــدفق فى أراضينا كل عام من جبال عالية فى الحبشة وأوغندا هو الذى فعل ببلادنا كل هذا ، ولهذا يحتفل شعبنا كل عام بمجىء مياهه وبوفـــائه بوعده ، وتتهادى المراكب الصغيرة على أمواجه بأشرعتها البيضاء ، وتتعالى منها زغاريد النساء وأغاريد الناس وأغانيهم الحلوة • ومن أجل ذلك يا ابنتى جاءت كلمـــة « هيرودوت » المؤرخ اليونانى الذى زار بلادنا منذ أكثر من ألفى سنة « مصر هبة النيل » • ومنذ بدأت أعى بعض الحقائق عن الحياة وأنا أقرأ الصيحات المدوية فى الصحف وأسمع الوعود الجميلة لرجال كانوا كبارا فى وطننا ، وكنا نسميهم بالملوك والباشوات ، عن الماء النظيف ــ مثل الماء العادى الـــذى تشربينه فى بيتنا ــ الذى سيصل الى القرى لينقذ الفلاح من البلهارسيا ومن الأمراض العديدة الأخرى التى تحطم حياته • وظل الفلاح فى

وطننا وفى أكثر من أربعة آلاف قرية يشرب الماء الملوث بالميكروبات والمخلوط بالطين حتى جاءت السنون المجيدة بقيام ثورة ٢٣ يوليو • وتخلصنا يا ابنتى وبلا رجعة من الملوك وخطب العرش ومن وعــود ملاك الأراضى ومن كل هؤلاء الذين يهمهم أن يبقى الفلاح على حاله وأن تشاركه بهيمته فى مسكنه وفى الماء الذى يشرب منه • ولم يكن فى مقدور الفلاح يا ابنتى أن يضرب عن شرب المــاء الملوث أو أن يختزن فى جوفه مثل الجمل كمية من الماء تكفيه حتى يعبر الرحــلة الشاقة الطويلة والتى اجتزنا بها عهود الملوك والسلاطين لنصل الى وطن جديد يعرف قدر الفلاح ويفرق بينه وبين دابته •

أظن أنك أدركت الآن أهمية المــاء للانسان بعــد هذا الحديث الطويل عن النيل وعن الفلاحــين فى وطننا • وأنا يا ابنتى ، ومنذ انتزعت من بيتنا أعيش بلا ماء • ان البيت عندى وعند الناس جميعا مثل الماء تماما • فكرى معى قليلا • تخيلى نفسك يوما وأنت تسيرين فى الشارع ولا تعرفين الى أى مكان ستذهبين • مــكان ياابنتى بسقف وجدران ونوافذ وفراش ليستلقى عليه الانســان ليستريح ولينــام ، وفيه الست ماما ، والأولاد ، وفيه الأب كمــا كان يحدث أيام كنت أعيش معكم ، وفيه موقد غاز وابريق يغلى بالشاى ، وفيه بســمات على الوجــوه وعواطف تنبض من القلــوب وتجيش فى الصــدور •

وأنا يا ابنتى ومنذ تلك الليلة التى انتزعت فيها من بيتنا أعيش بلا ماء وأحاول مثل الجمل تماما أن أجتر الذكريات التى اختزنتهــا أثناء حياتى معكم ومع الناس ومع الرفاق لأزود جســدى وأنا فى هذا المنفى البعيد بالماء أو الوقود الذى يبقى فيه تيار الحياة •

وفى الشهور الأخيرة يا ابنتى حدث تغير كبير فى حياتى ٠ كنت قبل تلك الشهور أعيش فى سجن القناطر ، وكانت المسافة بيننا وبين القاهرة لا تزيد عن عشرين كيلو مترا ٠ كنت أحيانا وأنا هناك أتطلع من شباك الزنزانة وأرى من خلال قضبانه أشجار الكافور الباسقة ، وأرى خضرة ممتدة لم أشهد لها مثيلا بمكان آخر ، وأرى الحدائق المترامية الأطراف ، وأرى من بعيد الطريق الذى ينساب وسط الحقول والذى لا ينتهى عند مدى البصر بل يمتد حتى يصل الى القاهرة ٠ كنت أقول لنفسى كلما رأيت سيارة تجرى فى هذا الطريق ••• « بعد أقل من نصف ساعة من الممكن أن أجد نفسى بين زوجتى وأولادى لو حدثت معجزة ووجدت نفسى بين ركاب هذه السيارة ٠ ترى ماذا يفعلون فى البيت الآن ؟ » وأظل أتخيلكم وأتخيل حجرات بيتنا وأنا أمد بصرى الى بعيد ٠

ونقلنا بعد ذلك يا ابنتى الى منفى الواحات وأصبحت المسافة بيننا وبين القاهرة تزيد عن المسافة بين أسوان والخرطوم عاصمة السودان الشقيق ، وحرمت من المنظر الذى كان ينقلنى بخيالى اليكم ومن الزيارة التى كنت أراكم فيها مع الست ماما والتى كانت تمدنى بذخيرة جديدة من الذكريات ٠

أتذكرين يا ابنتى آخر زيارة رأيتكم فيها بعد أن صدر الحكم على بيوم واحد ٠ لقد عرفت أمك قبل الزيارة وعلى باب السجن أن المحكمة العسكرية التى حوكمنا أمامها قد أصدرت حكمها على وعلى من معى من الرفاق ٠ حين قبض علينا يا ابنتى وحققت معنا النيابة كنت أظن أننا لن نحاكم لان أقوالنا وأفعالنا تثبت أننا أخلص من دافعوا عن هذا الوطن طوال الأيام والسنين التى عشناها ٠ وبعد أن حوكمنا كنت أظن أننا سنخرج جميعا الى الحرية لنتابع دورنا

فى بناء هذا الوطن وفى حمايته • لم أكن أتوقع أن تعطى لنا أوسمة البطولة والشرف كما طالب رجال القانون الذين دافعوا عنــا • كان أقل ما أتوقعه ألا يستمر النور ظلاما والظــلام نورا • لقد سمعت أمك كل ذلك منى ومن المحامين أثناء المحاكمة • كانت تعيش مثــلى على تلك الآمال لأنها هى الأخرى تتحمل عقوبة أقسى من عقوبتنــا • وحين رأيت وجه أمك وشحوبه وتعابير الألم واللهفة البــادية عليه ظننت أنها عرفت كل شيء • كانت قد ســمعت عن صدور الاحكام وتلقت بذلك نصف المفاجأة ، وكانت متلهفة لأن تعرف منى النصف الباقى • لم تكن تظن أن رواية « المحاكمة » لكافكا التى كتبت فى فترة القلق والضياع من الممكن أن تمثل فى حياتنا فى أجمل وأعظم السنين التى يعيشها وطننا • لم تكن تظن أنه مازالَ فى مقدور ضابط القلم السياسى أو المباحث أن يطرق باب انســان فى جوف الليل ويقبض عليه ويضعه فى السجن ويقدمه للمحاكمة ثم يدان ويعلن فى قــرار ادانته « لقد ثبت بالدليــل القاطع أنك تتآمر على قلب نظام الحكم بالقوة » • لم تكن تظن أنه فى مقدور أحد أن يفعل كل هذا مع انسان آخر لم يرتكب أية جريمة ولا يملك الا سلاح الكلمة التى يقولهــا بلسانه ويكتبها بقلمه • ولم أكن فى حاجة يا ابنتى الى أن أعــود الى الوراء لأتذكر قصة « كافكا » وأتخذها كمثل لما يحدث معنا اذا كان ما حدث قد حدث أيام كنا نناضل فعلا لقلب نظام الحكم والتخلص من الملك فاروق وقوات الاحتــلال والاقطاعيين أو الثالوث الدنس الذى كان يجثــم كالكابوس على أنفاس شعبنا • لقــد عاشت معى أمك يا ابنتى أجمل أيامنا ولياليبنا ، ورأت بعينيها أروع اللحظــات فى حياتنا وفى تاريخ شعبنا • لقد عاشت أمك معنا ليــالى الخطــر التى عشناها أيام صدقى وعبد الهادى ورأت كيف كنا نطارد من بيت

الى بيت وكأن هذا الوطن لم يعد وطننا • لقد رأت أمك فى تلك الأيام كيف كنا نبذل بسخاء وبلا خوف من المصير العرق والدم فى سبيل اسعاد شعبنا • فى تلك الأيام يا ابنتى كانت أمك مثلنا تماما بل وأكثر منا تتوقع الخطر كل ليلة ، وتتوقع كلما خرجت من البيت أنى لن أعود ، وأنها ستتلقى بعد ذلك النبأ بأن ما حدث لغيرى من الرفاق قد حدث لى أنا الآخر •

وجاءت ثورة ٢٣ يوليو يا ابنتى ، وعاشت أمك معنا سنين أخرى مختلفة كل الاختلاف عن السنين التى عاشتها معى منذ تزوجنا • كانت مبهورة لما ترى وللتغير الذى حدث فينا • لم تكن تظن أبدا وقد رأت موقف الحكومات السابقة منا وموقفنا منها أننا سندافع عن ثورة يوليو ومنذ اليوم الأول لقيامها • وشهدت أمك معنا الأحلام التى كانت تخفق بها قلوبنا والتى تحملنا من أجلها السجن والاضطهاد وقد تحولت الى حقائق منتصرة فى حياتنا وحياة وطننا • وهل يمكن لانسان يا ابنتى أن يقف ضد أحلامه وأمانيه وهو يراها تتحقق ؟

لم يكن هناك ما يمكن أن أخفيه عن أمك يا ابنتى • كانت تعيش معى واقعى وآمالى ، وتسمع معى دقات قلبى ، وترانى والرفاق الآخرين ونحن نعطى وطننا كل ما نملك من قدرات وأشياء جميلة • كانت ترى كل جهد نبذله ، وكل قطرة عرق تخرج من أجسامنا ، وقد اتجهت الى هدف واحد ، هو حماية هذا الوطن الجديد الذى تخيلناه أيام الحرمان والمعاناة كحلم بعيد المنال من الممكن أن تضيع أعمارنا قبل أن نراه بأعيننا • وكانت أمك يا ابنتى مثل شعبنا الطيب الذى علمته المحن كيف يميز الأشياء الصادقة من الأكاذيب تعرف أن أناشيدنا وقصائدنا ونبضات قلوبنا والكلمات

التى نكتبها ليست الا أشياء صــادقة • لكل هذا يا ابنتى لم تكن أمك تتخيل أبدا أن زوجها والرفاق الآخرين الذين عرفتهم سيلاقون مثل هــذا المصــير •

فى ذلك اليوم يا ابنتى سألتنى أمك بلا كلمات عن الحكم الذى صــدر على • كانت قد أحست وهى ترى تعــابير وجهى أن الشىء الذى لم تكن تتوقع حدوثه قد حدث فعلا • وكانت أول عبــارة قلتها لكم « عشر سنين » وحاولت أن أهون وقع هذا الخبر عليــكم فأضفت وأنا أحاول أن أبدو ضاحكا أو مبتسما « وزيادة فى الخــير خلوها أشغال شاقة » • وتغير كل شىء • الوجوه وقد اختفت الدماء التى كانت تجرى فيها • نظرات العيون وقد كانت مصوبة نحــوى فغطتها الغيوم ولم تعد تتطلع لى ولم تعد ترانى ، وبسمات اللقاء الحزينة التى دخلتم بها على والتى ما كدت أراها حتى اختفت • ونسينا الأحضان والقبلات التى كنا نتبادلها فى الدقائق الأولى من كل زيارة • وأحسست بأمك وهى تحاول أن تبدو متماسكة•وأحسست بها وهى تمنع الدموع من أن تنهمر من عينيــها • ورأيتك يا ابنتى وأخويك وأنتم تتطلعون الى بوجوه ساهمة ونظرات ساذجة بسيطة شهدت من خلالها صورة لم أرها من قبل لقلق الانسان وشقائه حين يفاجأ بالحياة وقد توقفت أمامه ، ثم يراها بعد لحظة أو ومضة وقد تحركت فى اتجاه آخر لم يكن يتوقعــه •

أتذكرين ما قالته أمك بعد سماع النبأ • لم تكــن ترد على الكلمات التى سمعتها منى • كانت كمن يعيد ترديد عبارات قالتهــا لنفسها مرات عديدة • كانت قد أعدت نفسها وكأنها أصدرت الحكم من قبل وفكرت فى المصير « عشر سنين •• لازم نعــزل من البيت وآخذ العيال ونروح البلد » « منين هاندفع الايجار كل شهر ؟ »

كنت قبل الزيارة قد أعددت كل شىء . كنت أنا الآخـر قـد أدرت حوارا طويلا بينى وبين نفسى ، وبينى وبين أمك ، وبينى وبينكم واحدا واحدا . كنت أعرف أنى سأنقل فى اليـوم التـالى من سجن القناطر الى منفى الواحات أو سجن الواحات الخارجة كما يسمونه . كنت على استعداد لأن استنجد بكل القوى التى يعرفهـا الانسـان ويؤمن بها والقوى الأخرى التى لا يعرفها لأزيل أثر الصدمة ولأدفع فى قلوبكم أملا جديدا فى المستقبل . كنت قد أعددت لأمك ولكم حديثا طويلا عن المستقبل المشرق الذى ينتظرنا مع مئات الملايين من الآدميين السود والسمر والبيض الذين يعيشون على هـذا الكوكب ، وعن الانسان الجديد الذى فجر الذرة وهتك حجاب السماء ولم يعد يتطلع الى القمر كمجرد حلم أو مبعث الهام لأغنيات الحب . وكنت أنوى أن أحدثك يا ابنتى أنت وأخويك عن انسان سمعت اسمه لأول مـرة وأنـا فى السجن وأحببته وازددت حبا له وأنا أتتبع أخبـار بلاده وخطوات نضاله وأتخيلها وأنا فى زنزانتى كملحمة رائعة تصور نضال الشعوب لانتزاع حقها فى الحرية والعلم ولقمة الخبز والتقدم ، وتصور فى نفس الوقت البشاعة والخسة التى مازالت متبقية فى عالمنا ، والفجر الجديد وهو يبزغ على افريقيا وعلى جسد شهيد أعطى حياته ليصنع هذا الفجر . كنت أنوى يا ابنتى أن أحدثكم عن « لومومبا » كرجل أفريقى وكأب وكمناضل من أجل حرية وطنه وسعادة الانسان ، وعن التضحية الكبرى التى قدمها لنـا والتى لا يمـكن لمثلى أن يذكـر تضحياته الى جانب ما قدمه هذا المسيح الجـديد . وكنت يا ابنتى أنوى أن أطلب منك أنت وأخويك أو تزوروا أولاد « لومومبـا » فى أنوى أن أطلب منك أنت وأخويك أن تزوروا أولاد « لومومبـا » فى زهور البسلة وهى أجمل الزهور التى أحبها . وكنت يا ابنتى أنوى

أن أحدث أمك عن وطننا وعن المحنة التى مر بها والتى أصابته بجروح دامية هى نفس الجروح التى تدمى فى جسدى • كنت أنوى أو أقول لها أن الآباء يتخاصمون مع الأبناء والزوج يتشاجر مع زوجته والأخ يلعن أخاه وقد يصل الأمر بينهما الى حد الايذاء والضرب واراقة الدم ، ومع ذلك يأتى الوقت الذى يدركون فيه جميعا أن الدم لا يتحول الى ماء وأن التضحيات التى قدمها كل منهم الى الأسرة لا يمكن أن تتحول هى الأخرى الى ماء ، وليس أمامهم فى النهاية لمصلحة كل منهم ولمصلحة الأسرة الا أن يصافح كل منهم الآخر ويعانقه ، ويتم كل ذلك ودموع الاخاء والحب والأمل فى غد مشرق تترقرق فى عيونهم جميعا •

كنت يا ابنتى قد أعددت فى ذهنى كل هذا لأقوله لأمك لأدفعها الى الايمان بأن وطننا الذى يسير الى الأمام بهذه السرعة لن يتوقف عن الحركة ويرجع الى الوراء ليعود ويتمسك بالأشياء الضارة المتخلفة من المراحل المظلمة فى حياتنا لمجرد أن يبقى مثلى فى السجن ليكمل العشر سنوات التى حكم بها عليه • كنت أنوى أن أقول لها أشياء كثيرة من هذا النوع لا أعتبرها مجرد كلمات تعزية على حدث مؤلم أصابنى وأصابكم بل أعتبرها أقدس المقدسات التى جعلت لحياتى قيمة وهدفا • ولم أكن أتوقع أبدا وبعد أن تسمع الحكم الذى صدر على أنها ستترك العواطف والآمال وعبارات التشجيع والثقة فى المستقبل وتتحدث عن المشكلة الأولى التى ستواجهونها • كان ايجار البيت هو الشبح الذى يلاحق أمك منذ قبض على • فأمك يا ابنتى تعرف كيف تدبر بقروش قليلة الطعام الذى يكفينا جميعا • وقد جربت معى الحياة شهورا طويلة على الفول والعدس والأرز • ولم ألحظ فى أيام الرخاء كما لم ألحظ فى أيام الحرمان أى تغير فى

تصرفاتها أو فى نظرتها لى أو فى الجهد الذى تبذله لحمل أعباء البيت ولتحمل المتاعب الكثيرة التى سببتها لها حياتنا المليئة بالمخاطر والمشاق • كان ايجار البيت يا ابنتى هو الشبح الذى يلاحقها دائما حتى أثناء وجودى معكم •

ونسيت الأشياء والأحلام الجميلة التى كنت أنوى أن أقولها حين أنزلتنى أمك الى الواقع الذى نعيش فيه •وتذكرت الأصدقاء والزملاء الذين وقفوا مواقف مشرفة فى أحلك الأيام التى مرت بنا ومرت بوطننا ، وتعمدت أن أبعد عن ذهنى هؤلاء الذين أنساهم تغير الظروف قدسية الزمالة وقدسية الرسالة التى وقفوا معنا جنبا الى جنب للدفاع عنها فى الأيام الزاهرة من حياة وطننا • وتذكرت عددا من الرجال الذين كانوا يختلفون معنا فى الرأى والذين قد يظن البعض أنهم كانوا شركاء فى العملية القذرة التى أدت الى اعتقالنا وكيف وقفوا من أمك ومنك ومن أخويك مواقف هزتنى وجعلتنى فى أشد الأوقات حلكة وظلاما أكثر ايمانا بالانسان وبالناس الشرفاء من أبناء شعبنا • وتذكرت هؤلاء الذين كانوا يعرفون بيتنا والذين كانوا يداعبونك ويداعبون أخويك ويعتبرون أنفسهم أصدقاء للأسرة وكيف أنهم لم يطرقوا بابكم مرة واحدة طوال السنوات الماضية • وتذكرت أشخاصا آخرين بحثوا عن بيتنا وعرفوه وطرقوا بابه لأول مرة وأنا وأنتم فى المحنة • وتذكرت « روجيه فايان » الكاتب الفرنسى الذى زار مصر بعد أسابيع قليلة من قيام ثورة يوليو والذى قبض عليه وأمضى أياما فى سجون الأقاليم والصفحات التى لا تنسى من كتابه « أشياء شهدتها فى مصر » الذى أهداه لعمك كمال والتى كتبها عن الفلاحين المصريين • تذكرته يا ابنتى وهو يحكى عن أشخاص لا يعرفهم ولم يسبق له أن رآهم وكيف كانوا

يقدمون له كل صباح وظهر ومساء وطوال الأيـــام التى أمضـــاها فى السجن الطعام الشهى المعد فى بيوت الفلاحين والشاى الساخن دون أن يطلب من أحد منهم شيئا ودون أن يعرف كيف يتحدث معهم أو يشكرهم وبالرغم من الأوامر والتعليمات والاجراءات المشـــددة التى اتخذت لمنع أى اتصال به • وتذكرت كلمات التقدير التى كتبها عن الصحفيين المصريين وكيف اجتمعوا فى نقابتهم وطالبوا بالافراج عنه فى الوقت الذى هاجمه بعض الصحفيين فى بلاده • لقد طلب من هؤلاء الذين طعنوه من الخلف وهو فى بلد غريب ألا ينسوا أن بعضهم لن يجد مكانا فى آخر طائرة تهـرب الى الولايات المتحدة الأمريكية يوم يصبح الأمر فى يد الشعب الفرنسى •

وأحسست يا ابنتى بصورة لم أرها ولم أحسها فى الكتب ومن النداءات التى كنت أقرؤها فى الصحف بمعنى كلمة التضامن وأهميـــة التضامن للانسان الذى أعطى لنفسه الحق فى أن يحلم ويعمل لتغيير واقع بلاده وواقع العالم ليجعله أكثـــر طمأنينة واشراقا ورفاهية وســـعادة •

وحدثت أمك عن كل ذلك يا ابنتى • وبالغت فى التعبير عن ثقتى واطمئنانى لموقف الرجال الشرفاء • واخترعت أعذار من عندى لهؤلاء الذين تخلوا عن واجبهم • وتحدثت عن رجال ونساء آخرين لا يمكن حصر عددهم ويعيشون فى أماكن عديدة من عالمنا ويتحدثون بلغـــات عديدة وكيف أن هؤلاء يورقهم أن يظـــل انسان حر وراء قضـــبان السجن ، ويهمهم أيضا أن لا يزعج البـــواب أمك بطرقاته على باب بيتنا أول كل شـــهر •

وانتقلت بعد ذلك من موقف الدفاع الى موقف الهجوم بعد أن رأيت دلائل الطمأنينة وقد عادت الى وجه أمك • وبعد أن رأيتك أنت

وأخويك وأنتم تلتفون حولى وتستمعون الى ما أقوله بشغف وانتباه وبعيون مبهورة تتلقف كلماتى كلمة كلمة • أتذكرين ما دار بينى وبين أمك فى الدقائق الأخيرة من الزيارة ؟ كان حديثنا يدور عنك يا ابنتى • كنت ومنذ أن رأيتك ترقصين فى بيتنا بعض مشاهد الرقص الايقـاعى الذى يعلمونه لكم فى المدرســة أحلم فى اليوم الذى أراك فيه وقـد أصبحت راقصة باليه فى احدى فرق الفنون الشعبية فى وطننا •

وشهدت بعد ذلك أوبريت « ياليــل ياعــين » ورأيت الرقص الذى كان قاصرا على الاثارة وكيف تحول الى فن يعبر عن أجمـل وأسمى ما يجيش فى كيان الانسان من أحاسيس وعواطف • وبدأت يا ابنتى أحلم فى مستقبل فنوننا ، وأرى تاريخنا الطويل وما فيه من أحداث عظيمة وبطولات وقصص حب وقد تحول الى أعمال فنيـة مثل « يا ليل يا عين » • وكنت وأنا أحـلم فى ذلك أتخيل احـدى بناتى وقد أصبحت راقصة باليه تصور بحركاتها مع أنغام الموسيقى حياة شعبنا وعواطفه وآماله • وتحولت أحلامى الى شىء آخر حين رأيتك ترقصين بسهولة وبلا افتعال وتدورين حول نفسـك وتحركين ذراعيك وساقيك ببساطة وخفة • وأخذت أسرح بخيالى الى بعيد وأراك وقد كبرت وأصبحت نجمة من نجوم الباليه • ورأيتك يا ابنتى وأنت تقدمين فنك على مسرح الأوبرا وعلى مسارح عديدة أخرى سيبتنيها شعبنا فى أيامه وسنيه المقبلة لتحمل البهجة والسعادة وأجمل ما فى تراثنا وثقافتنا الى ملايين العمـال والفـلاحين والناس البسـطاء فى وطننا • ووصلت أحلامى الى حد أن أراك وقد سافرت الى بلاد بعيدة قدمت لنا فنونها وعرفنا بعد تمتعنا برؤيتها مدى ما تملكه الشعوب من قدرة على الخلق والابداع • كنت أخاف يا ابنتى أن أنتقـل الى المنفى قبل أن أشرك أمك فى الحلم الذى تمنيته لك • وفى الدقـائق

الأخيرة من الزيارة طلبت من أمك يا ابنتى أن تذهب الى معهد الباليه الذى أفتتح أخيرا بالهرم والذى أعتبره رمـزا لنهضتنا الثقـافية الجديدة وتسأل عن شروط الالتحاق به وتعدك من الآن لتكونى ضمن هؤلاء الذين سيقدمون لشـعبنا فى مستقبل أيامه هذا الفن الجديد • وشعرت يا ابنتى وأنا أراك تتابعين حديثنا عنك بانتباه وشغف أنك بدأت تدركين أهميتك والآمال الكبيرة التى نعلقها عليك • وتغير جو الزيارة بعد أن انتقلنا الى الحديث عنـك وعن مستقبلك • وتحولت طمأنينة أمك الى شىء أكثر من الطمـأنينة • وعادت البسمة الجميلة تبرق فى وجه الست ماما وتضفى عليه جمالا وسـحرا • وحين أعلن الضابط انتهاء الزيارة كنا يا ابنتى على استعداد لأن نتبادل القبل وأن يشد كل منا على يد الآخر بأمل وثقة فى أن النور سـيعود حتما بعد الظلمة وأن أجمل الأيام التى سنعيشها هى الأيام التى لم نعشها بعد•

وفى اليوم التالى نقلت يا ابنتى الى منفى الواحـات مع باقى الرفاق • ومن يومها وكما سبق أن قلت لك حدث تغير كبير فى حياتى • لقد حرمت من الزيارة التى كنت أستمتع خلالها برؤيتكم والتى كنت أتزود خلالها بذخيرة من الحب الدافق والعواطف والآمال التى أعيش عليها حتى يأتى موعد الزيارة التالية • وليس فى استطاعتى يا ابنتى أن أصور لك ما عانيته من آلام القلق والحنين فى الأيام والأسابيع الأولى التى أمضيتها فى هذا المنفى • كنت كلما أفكر فيكم وفى بيتنـا أحس احساس الظامىء الذى يحاول أن يرتوى من ذكريات ماضيه ويظل يعب منها فلا يرتوى أبدا ويظل يحس بجفاف حلقه وجفـاف الحيـاة من حوله •

* * *

— ٦ —

اية أشياء باهرة تحدث فى وطننا ونحن بعيدون عنه ؟ يمكنك يا ابنتى أن تتخيلى حالتى اذا سمعت منك أو من الست ماما أن « مخلص » قد خطب فتاة جميلة ، وأن زفافهما سيتم بعد أيام ، رغم أنى تركته وهو لم يعبر بعد مرحلة الطفولة والصبا ، وينتقل الى مرحلة الشباب والحب . لقد انتابنى مثل هذا الاحساس حين سمعت منذ أيام أن جاجارين سيزور وطننا .

وفكرت فيك يا ابنتى وتأكدت أنك تحلمى فى جاجارين وتتخيليه مثل « الشاطر حسن » و « أبو زيد الهلالى » و « أدهم الشرقاوى » وغيرهم من أبطال الاساطير الذين صنع منهم خيال شعبنا وتمجيده للكرم والشجاعة وحب الخير ملاحم تتناقلها الأجيال وتضيف اليها جيلا بعد جيل أشياء جديدة . والليلة يا ابنتى ، وقبل أن أمسك القلم لأكتب لك ، عرفت أن « جاجارين » قد وصل الى القاهرة .

أية أنباء سارة جعلت قلوبنا ترقص من الفرحة . أنت لا تدرين مدى قلقنا ولهفتنا حين كنا نتابع ونحن فى سجن القناطر ، وقبل نقلنا الى الواحات ، ما يذاع من أخبار عن الرحلة الخيالية التى قام

بها جاجارين الى الفضـــاء • كانت قلوبنا وأعيننا وكل خلجـــة فى نفوسنا تتجه الى السماء وتعبرها لتصل الى الفضاء ولتبارك جاجارين طوال تلك الساعات التى أصبحت كل دقيقة منها توزن بميزان آخر غير ميزان الزمن الذى نعرفه • وكيف أتمكن يا ابنتى من أن أصور لك بالكلمات صيحات الفرح والانتصار التى انطلقت من زنازيـــن السجن فى جوف الليل حين سمعنا نبأ عودة « جاجارين » سالما الى الأرض ؟ أن مثل تلك اللحظات فى تاريخ البشرية لا يمكن أن تعوض حتى ولو كان الانســـان وقتها خلف أسوار الســـجون • فمن حقى يا ابنتى ومن حقك ومن حق كل انســـان عاش تلك اللحظات أن يفخر بأنه عاش فى الوقت الذى نجح فيه أول انسان فى الصعود الى الفضاء الخـــارجى •

لقد كانت البشرية يا ابنتى قبل أن يقوم « جاجارين » برحلته تقف عند مكان معين لا يتعدى حدود كوكبنا ، ثم انطلقت بعد تلك الساعة التى أمضاها فى الفضاء الى آفاق جديدة ، تغيرت معها الأفكار والتصورات والأحلام التى عاشت معها آلاف السنين • من كـــان يحلم أن يتمكن انسان من أن يرى فى ساعة واحده الأرض بكل ما عليها من بيوت وجبال ومحيطات وأنهار ، وأن يرى فى تلك الفتـــرة القصيرة نصف الكرة الأرضية وقد خيم عليه ظلام الليـــل والنصف الآخر وهو يبرق تحت وهج الشمس ويعيش فى ضوء النهار ؟ مـــن كان يحلم أن تتتابع أمام عينى واحد من البشر وفى دقائق وفى الأحجام التى نرى بها القمر والنجوم المدن والعواصم والقارات واحدة بعد الأخرى ؟ كثيرا ما يمضى الانسان يا ابنتى ساعة من الزمن فى حديث عابر مع انسان آخر • ويحدث أحيانا فى فترة الخروج من العمل أن تضيع هنا ساعة أو أكثر قبل أن نتمكن من أن نجد مكانا خاليا فى احدى

عربات الترام • فى تلك الفترة الصغيرة يا ابنتى رأى « جاجارين » كتاب الجغرافيا الذى يدرس فى المدارس • لقد رآه صفحة صفحة حتى آخر الصفحات التى ستقرئينها حين تذهبين الى الجامعة ، ورأى صفحات جديدة أخرى لم تضف اليه حتى اليوم • لقد رآه يا ابنتى من موقع جديد وبصورة جديدة لم يحلم بها هؤلاء الذين بذلوا أعمارهم فى دراسة شكل الأرض وتضاريسها وحجمها والمسافات الشاسعة بينها وبين الكواكب الأخرى • وفى السنين المقبلة من حياتك ستقرئين عن عالم عظيم اسمه « كوبرنيكس » وكيف نجحت قوى الشعوذة والخرافة والتخلف من أن تضعه فى النار وتحرق جسده وتنهى حياته لأنه أكتشف أن الأرض هى التى تدور حول الشمس وليست الشمس هى التى تدور حول الأرض ، وتجرأ وأعلن ذلك على الناس ، وستقرئين يا ابنتى عن عالم آخر أسمه « جاليليو » وكيف وصل الى نفس اليقين بأن الأرض هى التى تدور حول الشمس وكيف تجمعت تلك القوى الشريرة نفسها ووضعته فى السجن وقدمته للمحاكمة وهددته بنفس المصير الذى لاقاه زميله اذا لم يتراجع ويعلن تنكره للأفكار التى أعلنها • وحتى ينقذ حياته يا ابنتى اضطر الى أن ينكر ما رآه بعقله وعينيه ، وبعد أن أطلقوا سراحه عاد يصرخ وهو فى حالة ذهول « ولكنها تدور •• تدور » ماذا كان يحدث يا ابنتى لجاجارين لو كان يعيش فى عصر كوبرنيكس وجاليليو وأعلن أنه سيركب سفينة تخترق حجب السماء ويدور بها حول الأرض ويرى تتابع الليل والنهار فى ستين دقيقة ؟ ان اللهفة التى ظلت تتابع بها الشعوب « جاجارين » وهو يدور بمركبته فى الفضاء والفرحة التى استقبل بها توضح لك التغير الكبير الذى حدث فى عالمنا •

أى احساس جديد بالزمان والمكان يحسه الانسان بعد هذه

الرحلة ؟ أى احساس يحسه نحو مصيره ومصير الشياطين من البشر الذين ما زالوا يتوهمون بأن فى مقدورهم ربط الانسـان بالمحراث فى الحقل والآلة فى المصنع وبعجلة الحرب والاستمرار فى استغلاله واذلاله وقتــله ؟

كانت جدران الزنازين والقضبان والأسـوار والبنـادق التى يحملها الحراس تهتز من فرحتنا ٠ لم نكن نعيش داخـل جـدران السجن فى تلك الليـلة ٠ لم نكن نحس بأن أبواب الزنازين مغلقـة علينا ٠ كنـا مثل ملايين الناس فى كل أنحاء العالم قد نسينا الأرض بما عليها وبما فيها من آلام وأشجان وطرنا مع جاجارين الى الفضاء لنعيش معه اللحظات التى لم يكن أحد يظن أن الانسان سيعيشها ، ولنرى الأشياء الغريبة التى لم يكن أحـد يحلم أن عين الانسـان ستراها ٠ وانطلق فى جوف الليل صوت أحد الزملاء العمال وهو يغنى بصوت رهيب ليس بصوته لأنه جمع فيه أصوات مئات وآلاف الناس ولأنه لم يكن يغنى لنا وحدنا بل كان يغنى لشعبنا وللبشرية كلها ٠٠

جاجارين جاجارين ملك الفضا اسمه جاجارين
يا جاجارين الله يحميك كل العـالم بيهنيـك
شعبك عيـط فرحان بيك يا جاجارين
يا جاجارين ازاى لفيت
زى الكوكب لـما عليت
ألف عفارم ع السوفييت
يا جاجاريـن
دايمـا أملنا يزيد فيـكم
وكل نصر نهنيـكم

وشعب مصر يحييكم
يا جاجاريــن

وبعد دقائق يا ابنتى كانت الزنازين كلها ترد على الزميـل العامل وهو ينشد مواله ، وتعالت صيحات الفرح ••• « جاجارين — جاجارين ملك الفضا اسمه جاجارين » • ومثــل شعراء الأرغــول والربابة فى قرانا وفى المقاهى الشعبية الذين يخرجون أجمل أعمالهم من وحى الحدث الذى يعيشونه ومن وحى الجماهير التى تســتمع اليهم وتتفاعل مع ما ينشدونه ، مثل هؤلاء يا ابنتى أخذ هذا الرفيق يضيف الى مواله فقرات جديدة كان يهتز طربا ونشوة وهو ينشدها • فمرة يقول « اسمه يورى جاجارين » ويظل ينتظر حتى يتعالى صوتنا جميعا بنفس الألفاظ • ومرة أخرى يقول «اسمه يا كنيدى جاجارين» وكأنه مثل أبناء شعبنا حين يتباهون يعاير رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بأن رائد الفضاء الأول من أبناء الاتحاد السوفييتى • وأخيرا يصل حماسه الى القمة ويطلق صرخة التحدى والانتصار « فــوق أمريكا جاجاريــن » •

فى تلك الليلة يا ابنتى أخذت أفكر فى جماهير الشعب السوفييتى التى احتشدت لاستقبال جاجارين بعد وصوله الى الأرض • أى احساس كانت تحسه وهى تراه بعد عودته من تلك الرحلة الخيالية ؟ ان الانسان يا ابنتى فى مثل تلك اللحظات يحس بنفسه وقد أصــبح شيئا آخر أقوى من كيانه وأقوى من كل العواطف والأحلام والآمال التى يحملها • لقد عشت يا ابنتى لحظات حاســمة فى حياتى أحسست فيها نفس الاحساس •

مازلت أذكر بعض تلك اللحظات يا ابنتى •••

مازلت أذكر يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ واللحظة التى انطلقت فيها صيحات الجماهير الثائرة ضد قوات الاحتلال التى كانت تعسكر فى ثكنات قصر النيل فى ذلك الوقت • مازلت أذكر منظر الجنود الانجليز ، وفوهات بنادقهم المصوبة نحونا ، وطلقات الرصاص وهى تئز فى الجو ، وهتافات الجماهير وهى تزداد علوا • مازلت أذكر منظر العمال والطلبة وجماهير الشعب أو الرعاع كما كا يسميهم الخائن صدقى وهم يرفعون سواعدهم ويلوحون بها ويتقدمون فى تحد نحو قوات الاحتلال بصدور بارزة ورؤس مرفوعة وعيون تبرق وتغلى بالثورة • مازلت أذكر منظر الشهداء وهم يلفظون آخر أنفاسهم بعد آخر هتاف بحرية وطننا وحياة شعبنا وبعد آخر لعنة على الاستعمار وأعوانه الخونة • ما زلت أذكر الرايات المخضبة بالدم وهى ترتفع راية بعد راية بقدر عدد الأبطال من شباب بلادنا الذين استشهدوا فى ذلك اليوم • ان تلك اللحظات التى عشتها فى ذلك اليوم كانت من النوع الذى لا يوزن بميزان الزمن الذى نعرفه لأنها نقلت نضال شعبنا الى مرحلة جديدة • ومنذ ذلك التاريخ يا ابنتى انتقلت راية النضال من أيدى الباشوات وكبار ملاك الأرض الى العمال والفلاحين وملايين الكادحين من أبناء شعبنا الذين قامت ثورة يوليو كتعبير عن ارادتهم وآمالهم • ومنذ ذلك التاريخ يا ابنتى أصبح يوم ٢١ فبراير يوما عالميا للنضال ضد الاستعمار تحتفل جميع الشعوب بذكراه وتعتبره عيدا من أعيادها • ولعلك لا تعرفين حتى الآن أن اتحاد الشباب العالمى قد أصدر قرارا باعتبار ٢١ فبراير من كل عام يوما تحتفل به تنظيمات الشباب فى جميع بلدان العالم كرمز لنضال الشعوب ضد الاستعمار ومن أجل حياة جديدة •

ويوم آخر من أيام حياتى لا يمكن أن أنساه مهما حاولت أن

أبعده عن ذهنى • فى ذلك اليوم يا ابنتى شهدت آثار أحداث كبيرة وقعت فى عالمنا • كنت مثل غيرى من شباب وطننا الذين عاشوا سنى الحرب العالمية الثانيـــة أتتبع أحداثها من بعيد • لم أكن أتخيل أبدا أن الأخبـــار التى كنا نقرؤها فى الصحف ونسمعها من الاذاعة عن معسكرات الاعتقال وفظاعة الجستابو ستكون حين نراها فى الواقع بهذه الدرجة من البشاعة • فى ذلك اليـــوم يا ابنتى وفى مكان ما ببولندا لا أذكر اسمه زرت متحف الجريمة بمعتقل « أوزفنتش » ورأيت فى ساعات لا تحسب بحساب الزمن الذى نعرفه أشـــياء لم أكن أظن أبدا مهما بلغ سوء ظننا بالانسان أن فى مقدوره أن يفعل مثلها • كانت سنون عديدة قد مرت على وقـــوع الجريمة وكـــان المجرمون قد أفلتوا قبل القبض عليهم • ولم تكن هنـــاك الا بعض الآثـــار المتبقية من الجريمة والتى جمعت فى هذا المتحف • آلاف الصور يا ابنتى لأطفال وفتيات ونســـاء ورجال سيقانهم وسواعدهم مثل عيدان الذرة أو القصب ببطونهم المنتفخة المدلاة وعظامهـــم البارزة وعيونهم الغائرة مثل آبار جف فيها الماء منذ سنين •

آه يا ابنتى من الرعب والفزع الذى رأيته فى تلك العيون ! آه يا ابنتى من الفظاعة والوحشية التى تعسكها تلك العيون والتى كانت تراها حينما كانت ما تزال ترى ! آه يا ابنتى من منظـــر صـــدور النساء وقد أفرغ منها كل الأشياء التى كانت تنبض بالحياة والفتنة ! آه يا ابنتى من الانفعالات الباقية التى رأيتها على الوجوه والتى تدل على أن أصحابها كانوا قد تأكدوا من المصير وعرفوا أنهم قـــد عبروا المرحلة الغامضة التى نسميها ما بعد الموت !

وبعد معرض الصور يا ابنتى نصل الى مخزن كبير وضعت فيه

الدوام فوق أكوام من الشعر الذهبى والشعر الذى بلون المرمر ولون الفضة والذى يبرق وكأنه مازال حيا • كانت القلوب يا ابنتى تخفق لروعة جمال هذا الشعر يوم كان يتطاير ويغطى الوجوه حين تداعبه الريح ! وكانت خصلات الشعر يا ابنتى تحكى قصص الحب وتحدث كل من يراها عن أيام جميلة مضت ! والى جانب أكـوام الشـعر يا ابنتى وضعت بعض الأنوال التى كانت تغزل خيوط الشعر وتحولها الى نسيج لا هو بالقطن ولا هو بالتيل ولا هو بالحرير ولكنه كان بلا اسم وسيظل بلا اسم لأنه لا يدخل فى اطار الأشياء التى يصنعها الانسان ليستخدمها فى حياته • كان ضباط النازى يا ابنتى يقدمون هذا القماش الآدمى هدايا الى عشيقاتهم ويشعرون بقمة متعةالابتذال والشذوذ والجنون وهم يرونه بعد أن يتحول الى أثـواب على أجســادهن •

والأكوام الأخرى من أحذية الأطفال وأحذية الفلاحين وبقـع الطين ما زالت عالقة بها ، والشيلان التى كانت تضعها النسـوة الريفيات على أكتفاهن والتى كنت أرى أمى وهى تزهو حين تضـع على كتفيها وتغطى صدرها بشال مثل تلك الشيلان • والأكوام الأخرى من دبل الخطوبة والأسنان الذهبية والأمشـاط وفرش الأسـنان • وبين تلك الأكوام يا ابنتى رأيت لعب الأطفال ، القطارات والأحصنة والكور والعرائس الصغيرة ••• كل شىء له قيمة كان يملكه الانسان أو يوجد فى جسده كان يؤخذ أو ينتزع منه ويوضع فى أكوام ويشحن بعد ذلك الى ألمانيـا •

كانوا يقولون لكل فوج من الضحايا « سنأخذكم الى الحمـام لتغسلـوا أجسادكم بالماء الساخن • خذوا معكم قطع الصابـون

والمناشف وكل ما تملكونه من ملابس نظيفة » وكان هؤلاء الضحايا يشحنون بعد ذلك الى غرفة الغاز • كانوا يدخلون تلك الغرفة الرهيبة بعد أن يجردهم الحراس من كل شيء ويصبحوا عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ولكن بصورة أخرى لأن الأمهات يلدن الأطفال وعلى رؤسهم شـــعيرات متناثرة هنا وهنـــاك •

لقد مشيت يا ابنتى فى تلك الغرفة جيئة وذهابا ، وتطلعت الى سقفها والى جدرانها ، وتخيلت وأنا ألمس أرضها بقدمى مئات الألوف من الآدميين ومن كل الأعمار الذين كانوا يقذفون الى داخلها فوجـــا بعد فوج ، وتخيلت أجسادهم العارية وسيقانهم التى كانت مجرد عظام ومفاصل وهى تترنح بعد أن تستنشق الغاز الخانق الذى كان يتسرب الى الحجرة وبكميات متزايدة حتى يتحول الهواء الى كتلة سوداء من الدخان السام • وتخيلتهم بعد ذلك وهم يتســـاقطون الواحد بعد الآخر ويتحولون الى كوم من الأجســـاد البشرية ، ثم تخليت كل شيء وقد انتهى ••• الخطوات المترنحـــة ، وحشرجة الصدور ، وأبشع ذكريات عن قسوة الانسان حملها آدميـــون فى اللحظـــات الأخيرة من حياتهم •

ولا تنتهى جهنم البشر عند هذا الحد يا ابنتى • كانت أكثر بشاعة وهولا من تلك التى قرأنا عنها فى « القرآن و الانجيل و التوراة » • كان العذاب الذى يصب على جسد الآدمى لا يتوقف حتى بعد موته ••• هذا ما رأيته بعد ذلك يا ابنتى •••

الفرن الآدمى الذى لا يصنع الخبز أو يصهر الحديد بل يحول جسد الانسان فى دقائق وبكـــل ما فيه من روح وأعصاب وأوردة

وشرايين ولحم ودم وعظام الى رماد أسود • العربة المسطحة فى مدخله التى تجرى على قضبان وتتحرك الى داخله بدفعة بسيطة •• كانت تلك العربة يا ابنتى تحمل كل مرة جثة أو جثتين وأحيانا عدد أكبر من جثث الأطفال وتقذف بها الى نار أكثر بشاعة من نار جهنم صنعها شياطين كانوا يعيشون على هذه الأرض وما زال بعضـــهم يعيش ويمرح بيننا ويعد لنا أفرانا أخرى من نوع أكثر بشاعة • والرماد الأسود يا ابنتى الذى كانوا يعبئونه فى أكياس ليســتخدم كسماد والذى كان حيــاة وآمالا وأمومــة وأبــوة وطفولة ••• لا يا ابنتى ــ لن أكتب كلمة واحدة عن هذا المعتقل بعد ذلك • سأنتزع خيالى الذى ذهب الى هناك • لن أكتب لك كلمة واحدة عن الأشـــياء الأخرى التى رأيتها فى هذا المكان أو فى الأماكن الأخرى التى رأيتها فى بلدان عديدة وعرفت بعد أن رأيتها المعنى الحقيقى لكلمة الحرب •

لقد تعهدت بينى وبين نفسى ألا أكتب لك فى هذه الرسالة الا عن الاشياء الجميلة المبهجة • وها أنا أقع فى خطــأ جسيم وأحدثك عن أشياء لا أتمنى لأية طفلة فى عمرك أن تراها أو تسمع عنها • وأقسم لك يا ابنتى بكل شىء نبيل يقسم به الانسان وبأبوتى وبالحب الكبير الذى أحمله لك أن تلك الأشياء لن تتكرر وتحدث مرة أخــرى فى حياتك •••• كل ما كنت أود أن أقول لك يا ابنتى أن اللحظات التى عشتها وأنا أرى معتقل « أوزفنتش » ومتحف الجريمة الذى أقيم هناك كانت من نفس النوع الذى لا يحسب بحساب الزمن الــذى نعرفه ، وأن الأحداث التى جرت هناك والتى شهدت ما تبقى مــن آثارها كانت هى الأخرى من النوع الذى غير مجرى التاريخ • لقد أصبحت قضية السلام يا ابنتى هى القضية الأولى لمئات الملايين من الناس البسطاء فى جميع بلاد العالــم •

ولحظات أخرى يا ابنتى لها طابع آخر هو طابع البهجة والأمل والاشراق • لقد عشتها وشهدت أحداثها فى برلين فى أغسطس ١٩٥١ • لقد جاء فى « القرآن » يا ابنتى أن الانسان فى يوم الحشر سيفر من أمه وأبيه وصاحبه وبنيه فلكل منهم فى ذلك اليوم شأن يغنيه • كانت اللحظات الأولى لافتتاح مهرجان الشباب ببرلين يوم حشر من نوع آخر • كان يوم حشر من النوع الذى لا يفر فيه الانسان من أخيه بل يعبر البحار ويركب القطارات والطائرات ليلتقى به ويصافحه ويضمه الى صدره ويقبله • كان أكثر من ثلاثين ألفا من الشباب من جميع أنحاء العالم على موعد فى ذلك اليوم فى ميدان ماركس انجلز • كانت قد جمعتهم يا ابنتى آمالهم المشتركة لضمان حرية الانسان وسيادته على أرضه وسلام دائم للعالم • وفى تلك اللحظات يا ابنتى التى لا تحسب هى الأخرى بحساب الزمن الذى نعرفه تشابكت آلاف الأيدى واهتزت السواعد الفتية وارتفع الى عنان السماء وبجميع اللغات التى يعرفها البشر وبلحن واحد وبصوت هو ارادة المستقبل نشيد الشباب العالمى •••

« نحن شدنا المعـــالى

وسنبنى حيـــاة السلام »

وكانت تلك اللحظات من هذا اللقاء الذى شهدته من الأحداث التى تعتبر نقطة تحول فى تاريخ العالم • لقد عبرت تلك اللحظـــات يا ابنتى عن ارادة الشباب وهم القوة التى تصنع المستقبل لحماية الحياة وضمان مستقبل أفضل للجنس البشرى •

وحدث نفس الشىء يا ابنتى فى اللحظات التى عشناها ونحـــن نستمع الى المذيع وهو يعلن أول خبر عن وصول « جاجارين » سالما

الى الأرض • كانت هى الأخرى وبالرغم من وجودنا فى السجن من النوع الذى يحس فيه الانسان بأنه يشهد حدثا من الأحداث التى ستنقل البشرية الى مرحلة جديدة •

ولم تكن ليلة وصول جاجارين الى الأرض هى الليلة الوحيدة التى عشناها فى السجن وكأننا أحرار طلقاء نحتفل ونفرح مثل باقى الناس • لقد جاءت بعدها ليلة أخرى من تلك الليالى التى لن أنساها طالما ظل قلبى ينبض بالحياة • كنا يا ابنتى فى تلك الليلة نلصق أجسادنا بجدران الزنازين ، ونمد آذاننا لتخرج من القضبان لنتمكن من أن نسمع بوضوح وكلمة كلمة صوت المذيع قبل النشرة الاخبارية وهو يقول « اذاعة الجمهورية العربية المتحدة من القاهرة » • أية كلمات حبيبة الى نفوسنا حرمنا منها بعد أن نقلنا الى المنفى • كانت تلك الكلمات التى تسمعينها مرات عديدة كل يوم تهز قلوبنا لأنها كانت تنطق باسم وطننا وتنقل الينا صوته ونعرف عن طريقها ما يجرى فيه من أحداث • فى تلك الليلة يا ابنتى استمعنا الى المذيع وهو يصف احتفالات شعبنا بالعيد التاسع لثورة ٢٣ يوليو ، ثم جاء صوت عبد الناصر ليعلن اجراءات التأميم واشراك العمال فى ادارة المصانع ، وبعدها ومثل صوت الرعد انطلقت هتافات الجماهير معبرة عن فرحتها وكأنها لم تستمع الى قرارات ما زالت مجرد كلمات بل أصبحت أشياء تلمسها وتمسكها بأيديها • كانت الجماهير تعرف أن عبد الناصر يملك الصدق والحزم ويملك أيضا ارادة من حديد فى المواقف الحاسمة التى تعبر عن ارادتها وآمالها • لقد جربته يا ابنتى فى اليوم الأول للثورة ، وأيام خلع الملك فاروق ، وأيام ضرب الاقطاع ، ويوم حاولت أمريكا فرض وصايتها علينا ورفضت مساعدتنا فى بناء

السد العالى ، ويوم أعلن تأميم القناة ، وأيام العدوان ، وفى أيــام مجيدة أخــرى من تاريخنا ...

وصدقينى يا ابنتى أن فرحتنا فى تلك الليلة لم تكن تقل عــن فرحة شعبنا بل ربما كانت أكثر حماسا وانفعالا لأن الحياة فى السجن تدفعنا الى أن نبالغ فى الفرح كما نبالغ فى الحزن فى مناسبات أخرى. لقد تجمع حراس الليل أمام زنازيننا لتهنئتنا لأنهم ظنوا أن سبب فرحتنا هو صدور قرار بالافراج عنا بمناسبة أعياد الثورة . وحين عرفوا منا أن شيئا من هذا لم يحدث وأن سبب فرحتنا هو اجراءات التأميم التى أعلنت أصيبوا بخيبة أمل فينا . لم يكن فى مقدورهم أن يدركوا أن الانسان وهو ما زال يتحمل أقسى الآلام فى اســتطاعته أن يفرح ويبتهج حين يرى الأشياء التى تعذب وضحى من أجلها وقد انتصرت وأصبحت حقيقة .

فى تلك الليلة يا ابنتى كان المذيع يقول وهو يعلق على قرارات التأميم التى صدرت « ان العمال والفلاحين والمثقفين الثــوريين سيقفون صفا واحدا لحماية تلك القرارات الثورية من الأعداء الذين يقفون ضدها والذين سيتحينون أية فرصة للانقضاض عليها » . وصدقينى يا ابنتى أن أحدا من الذين صنعوا ثورة ٢٣ يوليو لو جاء الى السجن فى تلك الليــلة لأصيب بنفس الحيرة التى أصيب بهــا الحراس ولوجد نفسه يردد نفس العبارات التى قالوها لنا وهم يعبــرون عن دهشتهم :

« يا اما احنا مجانين أو انتو مجانين أو الحكومة هيه اللــى مجنونة . امال مقعدنكوا فى السجن لحد دلوقت ليه ؟ »

فى تلك الليلة يا ابنتى كنا وكأننا نرسل اشارة النصر نضـــرب بقبضاتنا على جدران الزنازين وينتقل صدى الضربات من زنزانة الى زنزانة • كنا نصفق مع كل قرار ويتعالى تصفيقنا فى صوت واحـــد وكأننا نقف فى نفس الصفوف مع أبناء شعبنا ونستمع الى الرجـــل الذى قاد هذه الثورة وهو يعلن بكل ما عرفناه فيه من عناد واعتداد بشخصه وحب لهذا الشعب الأنباء العظيمة التى ستجعل الحيـــاة فى وطننا أكثر جمالا ورخاء وطمأنينة وبهجة • كنا جميعا يا ابنتى من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ولم يكن بيننا واحد فقط من الرأسماليين الذين أعلن المذيع أنهم سيقفون ضد تلك الاجراءات • ماذا أقول يا ابنتى وكيف يمكننى أن أفسر لك هذه الالغاز التى يصعب على مثلك أن يفهمها أو يجد لها حلا والتى لا أخفى عليك أنها تبعث فينا أحاسيس الألم والمرارة والقلق على مصير وطننا •

كنت يا ابنتى حين أمسكت القـــلم أنـــوى أن أكتب لك عن « جاجارين » الذى عرفنا الليلة أنه وصل الى وطننا • وها أنا وكما حدث مرات عديدة أهيم وأشرد وأذهب بخيالى الى أماكن بعيـــدة وأتحدث عن أشياء لم أكن أظن أنى سأتذكرها أو أكتب عنها• أعذرينى يا ابنتى لهذا الأسلوب فى الكتابة • اعذرينى لأن الذكريات والأحلام والعواطف التى اختزنتها تريد كلها أن تنطلق وأن تخرج من كيانى كتعبير عن مدى الحب الذى أكنه لك فى قلبى • ان ما هزنى يا ابنتى ودفعنى لأن أمسك القلم وأعاود الكتابة لك هو النبأ الذى سمعته بأن طالبات المدارس كن فى استقبال « جاجارين » ، وأن طالبة مصرية صغيرة ألقت كلمة باللغة الروسية للترحيب به ثم قدمت اليه باقـــة من الزهور • وتخيلتك أنت « ومخلص » و « نادية » وأنتم فى مطار القاهرة بين الآلاف من الطالبات والطلبة الذين ذهبوا لاستقبال

الانسان والزوج والبطل الذى سيظل يذكر اسمه كلما تمكن الانسان من أن يكتشف سرا آخر من أسرار هذا الكون •

وجاجارين يا ابنتى يحمل صفة أخرى الى جانب تلك الصفات • انه أحد أبناء الاتحاد السوفييتى ••• وسيأتى اليوم الذى تعرفين فيه ويعرف فيه شعبنا أنه لولا نجاح ثورة أكتوبر التى قام بها هـذا الشعب العظيم لما أمكن لبلادنا وبلاد أخرى عديدة من أن تتخلص من الاستعمار وتحقق الانتصارات الباهرة التى حققتها • ان البشرية كلها يا ابنتى تحمل فى أعناقها دينا كبيرا لهذا الشعب العظيم • وهى لم تف حتى اليوم بجزء صغير من هذا الدين • وبقدر عدد اللعنات والشتائم والافتراءات والأكاذيب التى وجهها أعداء بلادنا وأعـداء البشرية الى بناة أول ثورة اشتراكية غيرت وجه التاريخ سيأتى اليوم الذى ترد فيه الشعوب الحسنة بعشرة أمثالها وتعبر عن امتنانها وعرفانها بالجميـل وتقديرها وحبها العميق لهذا الشعب العظيم •

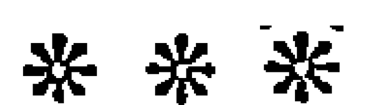
انى أتخيـلك يا ابنتى ومعك مخلص ونادية وأنتم تحيطـون بالست ماما وتقفون مع جماهير شعبنا فى ميدان التحرير أو ميـدان الأوبرا لتشاهدوا «جاجارين» وهو يركب عربة مكشوفة وينظر اليكم ويحييكم بكلتا يديه • انى أتخيل وأنا فى منفاى البعيد جماهير شعبنا وهى تخترق كعادتها حصار البوليس وتندفع نحو العربة لتضـم جاجارين الى صدرها وتقبله وتحمله على الأعناق • فأنا لا أنسى يا ابنتى وأنت لم تولدى بعد وفى أيام مجيدة أخرى من حياة شعبنا اليوم الذى عرفنا فيه أن عددا من سـفن الصيد السوفييتية أعلنت عن عزمها على المرور فى قناة السويس • وكنا أيامها نخوض معركة الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال • فى تلك الأيام يا ابنتى خـرج

شعب بورسعيد عن بكرة أبيه ليستقبل تلك السفن على رصيف الميناء ، وظل الناس ساهرين طوال الليل فى انتظار رسل السلام والحرية الذين سيأتون اليوم من الاتحاد السوفييتى • وبدلا من منارة الميناء التى تضىء لتهدى السفن كانت مئات المشاعل ترتفع فى أيدى الناس وتحول الليل الى نهار • كان شعبنا يا ابنتى يعرف رغم كل ما قالوه له من أكاذيب وكل ما سمعه من افتراءات أن الاتحاد السوفييتى هو الصديق الوفى له ولكل الشعوب ، وهو الحليف القوى الذى سيقف معه ضد أعدائه • كان شعبنا يعرف أيضا المعنى العميق الذى ترمز اليه زيارة تلك السفن لمياهنا ونزول بحارتها فى قلب المنطقة التى كانت تدور فيها معارك الكفاح المسلح • وكان أعداء شعبنا يدركون الأثر الذى سيتركه وصول سفن الصيد الصغيرة • ومع فرحة أهل بورسعيد والزغاريد التى انطلقت من أفواه نسائها عند وصول رسل الحرية أصابت رجفة الفزع والخوف أساطيل بريطانيا وعرش فاروق وقصور الباشوات لأنهم كانوا يدركون أن الشىء الوحيد الذى كان ينقصنا للخلاص هو الحليف الذى يقف الى جانبنا • وقد جربنا كل ذلك يا ابنتى وجربنا موقف الأعداء وموقف الأصدقاء حين واجهنا العدوان الثلاثى الغادر الذى شهدته أنت وأخواك ، وحين هددتنا أمريكا وأعلنت انهيار اقتصادنا وسحبت عرضها بتمويل مشروع السد العالى •

أى فارق يا ابنتى بين أيامنا الماضية حين مرت ببلادنا سفن الصيد السوفييتية وبين أيامكم الحالية التى يستقبل فيه شعبنا وعلى أرضه المتحررة رائد الفضاء السوفييتى • عشر سنوات فقط تعتبر نقطة فى نهر الحياة تغيرت فيها أشياء كثيرة وأصبحنا وكأننا نعيش فى عالم آخر • أنت لم تشهدى الأيام السوداء فى حياة وطننا ولم تحسى ببشاعتها لأنك ولدت بعد شهور قليلة من ثورة يوليو • ويوم

ومنذ يا ابنتى كان رسم التاج قد اختفى من حياتنا وأصبح وطننا لأول مرة فى تاريخه جمهورية يقف على رأسها أحد أبنـــاء الشعب • كل شىء فى وطننا يا ابنتى قد تغير فى العشر سنوات الأخيرة والعالم الذى نعيش فيه تغير هو الآخر وسار الى الأمام وها نحن نشـــهد أول انسان يقود سفينة فضاء ويدور بها حول الأرض •

وصوت رفيقنا العامل ما زال يجلجل « جاجارين ـــ جاجارين ـــ ملك الفضا اسمه جاجارين » • وسنظل يا ابنتى نتابع زيارة جاجارين ونقضى معه ومع شعبنا الأيام التى سيمضيها فى وطننا فى احتفالات مستمرة لأننا كما قلت لك نبحث دائما عن أشياء مفرحة نحتفل بهـــا ونخترعها أحيانا اذا لم نجدها فما بالك وبلادنا تستقبل بطلا عظيما سيظل الرائد لأبطال الأساطير الجدد •



- ٧ -

كنت وأنا أتمتع بالحرية أجد سعادة كبيرة حين أدعو أحد الأصدقاء لقضاء السهرة فى بيتنا . كنت أشعر بالاعتزاز كأب وكزوج وأنا أقدم الست ماما وأقدمك أنت وأخويك لضيوفنا . ولن أنسى يا ابنتى الليالى الجميلة التى أمضيناها فى بيتنا مع بعض الوفود التى جاءت الى وطننا أيام انعقاد مؤتمر التضامن لشعوب آسيا وأفريقيا فى القاهرة ، ومع الكتاب والفنانين الذين كانوا يأتون من بلاد صديقة ليروا بأعينهم التغيرات الباهرة التى حدثت فى وطننا . لن أنسى الشيخ سيد مكاوى وهو يعزف على العود ويغنى بصوته الحلو القوى النبرات أغنية صلاح جاهين « أسوان ملانه حديد — انهض ومد الايد » ويظل يشجينا بألحانه وأغانيه حتى الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل . لن أنسى فرحتى فى تلك الليالى ، وفرحة الزملاء من الكتاب والفنانين ، والكلمات التى كنا نقولها لضيوفنا ، والتى كانت تعبر عن الآمال الكبيرة التى كانت تجيش فى صدرونا بأننا فى الطريق لأن ننطلق بثقافتنا الوطنية نحو آفاق جديدة . لن أنسى يا ابنتى منظر هؤلاء الضيوف وقد أخذهم

الطرب وهم يصفقون ويهتزون مع الأنغام ويحاولون وهم لا يعرفون كلمة عربية واحدة أن يقلدونا ونحن نرد على الشيخ سـيد •

« لو كنت ست الحسن والجمال
يكون أمير أحلام غرامك أنا »

ولعلك يا ابنتى ورغم مرور السنين مازلت تذكرين الأصـدقاء العديدين الذين نمت بينك وبينهم روابط المودة والحب • وليت الأمر وقف عند هذا الحد • فأنا لا أنسى ما حدث بينك وبين صـديقنا السودانى « آدم » •• لم ألحظ أى شىء غير عادى أثناء زياراته الأولى لبيتنا • كان يداعبك ويداعب نادية فى نفس الوقت ، ويقوم أمامكما بحركات بهلوانية بيديه ورجليه تجعلكما تفطسان من الضحك• والى هنا لم يكن هناك ما يدفعنى الى أن أقلق أو أخاف من أن يغزو هذا الصديق قلب احدى بنتى • وتكررت زيارات آدم يا ابنتى • كان دائما وفى الأيام التى أمضاها فى القاهرة يحضر الى مكتبى وقت انتهاء العمل ويغرينى بأن نذهب الى بيتنا لنقضى سهرتنا هناك • وفجأة ، بدأت ألحظ أن الصداقة بينك وبين آدم تعدت مرحلة الضحك واللعب وحكاية الحواديت ورأيتكما مرات عديدة وأنتما تتهامسان وكأنكما تتناجيان • ثم تجرأ آدم وعرف الطريق الى حجرتك ، ورأيته وهو يقودك من يدك وأنت تتمنعين وتتقاومين • ورأيتك بعد ذلك يا ابنتى وأنت تجرينه من يده وتأخذينه الى هناك وتعرضين عليه كراساتك وملابسك وعروستك الصغيرة • وأكتشفت فى النهاية أنكما وطوال جلسات الهمس والمناجاة كنتما تدبران أمرا • فأنا لا أنسى أبدا تلك الليلة التى جاء فيها آدم من حجرتك ويدك فى يده ، وتقدم نحوى ونحو الست ماما وانحنى انحناءة خفيفة ، وفجأة ، وبلا تمهيد

أو مقدمات ، طلب منا يدك • كانت علامات الارتباك تبدو على وجهك • كان جسدك كله يرتجف وكأنك أصبحت احدى بطلات الحواديت التي حكتها لك الست ماما •

وسألتك يا ابنتى •

ـــ انت بتحبى آدم يا أمـــل ؟

ورددت على وكأن الاجابة كانت على لسانك •

ـــ أيوه بحبـــه يا بابا •

وعدت أســـألك •

ـــ لكن يا أمل أنت عارفة ان آدم مش عايش فى مصر • انتم ناويين تقعدوا معانا فى البيت ولا ها تسافروا السودان •

وكان ردك يا ابنتى وبلا تفكير •

ـــ ها نسافر السودان ، ونقعد مع بابا وماما بتوعه ، وهو قال لى بكره مصر والسودان ها يبقوا بلد واحـــده •

وتأكدت أن أية محاولة من جانبى لاقناعك بالتراجع سيكون نصيبها الفشل • لقد استغل هذا الصديق جلساته المنفردة معـــك وأقنعك بكل شيء •• وانتقلنا الى الحديث عن الاجـــراءات العملية وبدأنا بموضوع المهر • لا مهر ولا دبلة خطوبة ولا عفش ولا حفلة زفاف ولا أى شيء من تلك الأشياء التى تعارف عليها الناس • يكفى أن كلا منكما يحب الآخـــر وأنكما ستعيشان معا وتتحملان مسئولية

حياتكما المقبلة • يكفى حفلة شاى صغيرة نقيمها فى البيت قبل سفركما الى الوطن الشقيق • هكذا قال آدم وأنت مازلت واقفة بجواره فاتحة فمك وفاتحة عينيك • ولم يكن أمامى وأمام الست ماما الا أن نوافق • وكانت آخر المسائل التى ناقشناها اصرار آدم على أن تأخذى معك جميع الأشياء التى تخصك فى بيتنا • وذهبت الست ماما الى حجرتنا وأحضرت حقيبة كبيرة وضعت فيها كتبك وكراساتك وفساتينك والعروسة الصغيرة المصنوعة من القماش المحشو بالقطن التى لم تكن تفارقك فى تلك الأيام • كم ضحكنا وسعدنا فى تلك الليلة يا ابنتى ؟

أتذكرين آدم الذى كنت تنوين أن تتركى البيت وتهجرينا من أجله ؟ فى تلك الأيام يا ابنتى كان آدم عائدا من ستوكهلم بعد أن مثل بلاده فى اجتماعات مجلس السلام العالمى • كان قد تكلم هناك عن قضايا وطنه ووطننا أمام غيره من المندوبين الذين جاءوا من جميع بلاد العالم والذين يمثلون ارادة ملايين البشر ونضالهم لمنع الحرب ولضمان سلام دائم • كنا فى فترة الانطلاق والانتصارات والأيام المجيدة يا ابنتى • فى تلك الأيام كان بيتنا لا يخلو أبدا من الأصدقاء السودانيين • كانت روابط الكفاح المشترك ، والآمال الكبيرة المشتركة، والقلوب التى عاشت هنا طويلا ، وحب الشقيق للشقيق ، والنيل الذى يجرى بيننا وكأنه شريان يجرى فى جسد واحد ، كانت كل تلك الروابط يا ابنتى فى أوج قوتها •

لقد قدمت اليك آدم يا ابنتى ، كما قدمت اليك أصدقاء من بلاد عديدة أخرى ، وهم فى ظروف عادية ، وفى أوج نشاطهم وقوتهم • لقد رأيت آدم المثقف والمناضل الذى وهب حياته لقضية كبيرة ، والذى

ينبض قلبه بحب شعبه وبحب البشرية كلها • لقد رأيته يا ابنتى وهو يرتدى حلة أنيقة وقميصا أبيض نظيفا . ويضع فى جيب سترته البنبون وقطع الحلوى • لقد رأيته وهو فى أبهج حالاته • كان مثل العريس الذى يستعد ليوم زفافه • كان يرى الحياة من حوله مشرقة بالآمال • والرفاق الذيــن سأقدمهم لك فى الصفحات التالية من نوع آدم ، وكلهم يعيشون فى ظروف أخرى ، هى نفس الظروف التى أعيش فيها ، والتى رأيت بعينيك بعض جوانبها أثناء زياراتكم لى •

لقد حدثتك فى الصفحات السابقة عن الصداقة التى تربطنــا بالشعب السوفييتى الذى أنجب « جاجارين » • وشيخ العرب وهو أول الزملاء الذين سأقدمهم لك هو الذى ألف موال « جاجارين » وغناه وما زال يغنيه حتى اليوم ، وهو فى نفس الوقت الرفيق الذى فرض نفسه كمسئول عن جميع المسائل التى تخص الاتحاد السوفييتى وعلاقاته بوطننا وبلدان العالم الأخرى • ومثلما يقع الشاب فى حب فتاة ويرى كل شىء فيها جميلا وساحرا ، ويراها كل يــوم تزداد جمــالا وســحرا ، ويراها دائما بلاعيوب وبلا نقائص ، ومثلما كان ينظر الشــاطر حسن الى ست الحسن والجمــال ، هكذا ينظر شيخ العرب الى الاتحاد السوفييتى • ومن حظه أن الحبيبة هنا لا تعرف التقل ولا الدلال ولا الخصام لأنها دائمة الوفاء لأحبائها • ولم يحدث مرة أن سمعنا خبرا عن انتصار حققه الشعب السوفييتى الا وترك شيخ العرب أى شىء فى يده ، وترك الصــابون على وجهه اذا كان يغتسل ، وترك اللقمة فى فمه دون أن يبلعها أو يكمل مضغها اذا كنا نتناول الطعام ، وترك الكلمة التى كانت على لسانه اذا كان مشغولا بالحديث مع واحد منا ، وهب واقفا يعلن الخبر من جديد وبصوت جهورى وكأنه يفاجئنا بأنه وحده قد وصل الى معرفة أشياء لم نسمع

عنهامن قبل • وبعدها يا ابنتى يتحول الحديث ومن طرف واحد هو شـيخ العرب بالطبع الى موضوع واحد هو الاتحاد السـوفييتى والانجـازات العظيمة التى حققهـا فى المـاضى والتى سيحققها فى المستقبل • اننا جميعا نحب الاتحاد السوفييتى يا ابنتى ، وربما كان حب بعضنا له أكثر عمقا ، ولكن شيخ العرب جعلنـا وبمرور الزمن نقبل رغم أنوفنا الوضع الذى جعل منه وحده المعبر عن مشـاعر الطبقة العاملة المصريـة والشعب المصرى كله نحـو الوطن الأول للاشتراكية • ان شيخ العرب يتابع الأخبار التى تنشر عن مشروع السنوات السبع فى الاتحاد السوفييتى ، ويجزم ، وهو هنا مثلنا بين جدران السجن ، دون أن يعرف تفاصيل المشروع ، ودون أن يأخذ أى وعد من أحد ، أن المشروع سيتم قبل الموعد المحـدد له بسنتين على الأقل • وهو يرى أن الأوضاع فى عالمنا ستتغير تغيرا كاملا بعد اتمام هذا المشروع ، لأنه سيؤدى الى أن يفوق انتـاج الاتحاد السوفييتى انتاج الولايات المتحدة الأمريكية ، ولأن هـذا الانتاج الوفير سيصبح مصدر قوة ورخاء لشعوب العالم • ان شيخ العرب يا ابنتى يرى أن النتيجة الأولى لانجاز هذا المشروع هى أن الشعوب سيصبح فى يدها الوسيلة التى تمكنها من حماية السـلام وفرضه على الأرض وفى الفضاء وعلى القمر والنجوم ايضا • ويوم أعلن كاسترو ، وهو يواجه تهديدات الولايات المتحدة الأمريكية ومؤامراتها ، أن الاتحاد السوفييتى قد زود كوبا بالصواريخ من آجل أن تسحق العدوان وعلى الأرض التى يدبر منها ، يوم أعلـن فيدل كاسترو ذلك خرج علينا شيخ العرب بموال جديد انطلق مـن أعماقه مثل الصاروخ « الصواريخ ــ الصواريخ ــ احنا اللى معانا الصواريخ » • ولو رأيته يا ابنتى وهو يغنى هذا الموال لتخيلت أنه

يقف فى ميدان المعركة ويحمل بين يديه صاروخا ضخما وأنه مثل كاسترو أقوى من النظام الأمريكى الذى يعانى من الضعف والتحلل وكافة أمراض الشيخوخة المبكرة .

وشيخ العرب يا ابنتى ليس شيخا يلبس عمامة . اننا نسميه بهذا الاسم لأنه يفخر دائما بأنه أحد أبناء قبيلة «أبناءعلى» وهممن مشايخ العرب وأصحاب البطولات فى مديرية الشرقية،ونسميه بهذا الاسم أيضا لأنه فى هذه الحبسة ـ كما نقول هنا ـ أصبح فىالرابعة والخمسين من عمره . لقد عرف الطريق أو أرغم على أن يعرف الطريق الى السجون والمعتقلات منذ أكثر من ثلاثين عاما . أيام الملك فــؤاد سجنوه مرات عديدة لتنظيمه الاضرابات فى مصنع النسيج الذى كان يعمل به،كان يطالب برفع أجور العمالقرشاأوعدةقروش، وكان هذا العمل يعتبر جريمة وجريمة خطيرة فى ذلك الوقت . وكان يا ابنتى الى جانب مطالبته بقرش أزيد فى أجر العامل يشــترك فى المظاهرات التى كانت تقوم ضد الباشوات والاقطاعيين وعمــلاء الاستعمار . وفى تلك المظاهرات كان ينادى بسقوط حكم الخــونة وأعداء الشعب وبالاستقلال والحرية لوطنه . ومن أجل ذلك سجنوه واعتقلوه مرات أخرى . ومات الملك فؤاد وورثه فى حكم بلادنا ابنه فاروق ، ولم يتغير حال شيخ العرب . لقد ازدادت الحركة الوطنية قوة ووضوحا وعرف الشباب أن طريق الخلاص أصبح يستلزم أسلحة جديدة أخرى غير الأسلحةالتى كان يستخدمها الزعماء فى ذلكالوقت، وترك حزب الوفد وعباس حليم والقمصان الزرقاء والخطب الزنانة وربط مصيره بالطليعة الجديدة . وهكذا أصبح شيخ العرب عضوا فى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت ونظمت مظاهرات ٢١

فبراير التى سبق أن حدثتك عنها • فى تلك الأيام يا ابنتى ، ومع كل ضربة كانت توجه الى شعبنا ، كان المكان الذى لا يتغير لشيخ العرب هو المعتقل أو السجن • انه يا ابنتى لم يعد يعرف كيف يحسب الأيام والسنين التى أمضاها فى المعتقلات والسجون • ان تاريخ تلك الأيام والسنين هو فى نفس الوقت تاريخ حركتنا الوطنية فى أمجد الفترات التى مـرت بها •

ان الأربعة والخمسين عاما التى عاشها شيخ العرب فى عمـل مضن من أجل القوت ، وفى نضال مستمر من أجل حرية وطنه ، لاتظهر على وجهه • انه يبدو دائما وكأنه فى الثلاثين من عمره • وجه أحمر لا تبدو فيه الخطوط والتعاريج ، وشعر خفيف ناعم ، لا هو بالأسود ولا هو بالأصفر ، ولا تبدو فيه أية شعيرات بيضاء ، وصدر عريض بارز مثل صدور أبطال حمل الاثقال التى ترينها فى المجلات ، ورقبة قصيرة مكتنزة ثابتة على كتفيه مثل جذع الشجرة ، وساقان ليسا فى قوة الصدر ولا اتساقه تظهر فيهما العروق الزرقاء ويكشفان وحدهما عن عمره الطويل ، وقامة قصيرة تقرب كل هذه الأشياء الى الأرض ، وتجعله يبدو وكأنه أحد الأبطال الذين صورهم « جـوركى » فى قصصه ، أو الذين تحدثت عنهم الملاحم اليونانية القديمة •

وشيخ العرب يا ابنتى لا يتحين الفرص لعرض فتوته وعضلاته • انه دائما فى حاله عرض لها ، فيمكنك كل يوم ، وسواء أكنا فى الصيف أو الشتاء ، أن تريه وهو يهز كتفيه ويعرض صدره العارى • انـه يا ابنتى تصدق عليه العبارة التى كتبها كارل ماركس « ان الطبقـة العاملة فى نضالها من أجل مستقبل أفضل لها وللبشرية لن تفقـد الا الأغلال » • وهو لا يشعرك أبدا بأنه فقد شيئا فى حياته ، أو أن

حياته كانت عناء متصلا • وهو لكل هذا يا ابنتى يحس وبصـورة لم أرها فى أى انسان آخر بأن الانتصارات التى حققها شـعبنا وتحققها الشعوب الاخرى والشعب السوفييتى بالذات هى انتصارات تخصه وتؤثر فى مجرى حياته • انك يا ابنتى حين تضيفين الى رقم ٥٤ ست سنوات أخرى وهى الأعوام المتبقية من التسع سنوات التى حكم بها على شيخ العرب ستجدين أنه سيخرج من السجن وهو فى سن الستين ، وهو نفس الوقت الذى يصبح فيه من حق الانسان أن يتوقف عن العمل ويحال الى المعاش ليأخذ حقه من الراحة فى الأيام المتبقية من عمره • لقد أعطى شيخ العرب سنى شبابه وسنى رجولته لهذا الوطن ، ومع ذلك فها هو يبخل عليه وفى أيام مجيدة فى تاريخه أن يمضى السنين المتبقية من عمره سعيدا مطمئنا فى بيته وبين زوجته وأولاده • ان كل ذلك لم يوقف شيخ العرب عن الغناء لوطنه والاشادة بأمجاده وانتصاراته • استمعى اليه يا ابنتى وهو يناجي وطنه ووطننا فى موال آخر من مواويله •

يا شارب الدم اوعى السم فى دمى
الشعب واعى مفيش داعى تقول دامى (١)
النيل أبوى وأخوى والبـلد دامى (٢)
أنا كنت بأحدى لوحدى القرب عزلونى
نهبوا بلادى الأعادى بالطبع عزلونى
وخلصت من الغرب ليه القرب عزلونى
الأرض أرضى وأنا برضى على واجب

---

(١) دامى (دا أمى)
(٢) دامى (دمى)

أصون بلادى وبلادى حبها واجب
طول عمرى وطنى ووطنى أول الواجب
فيه زرع أخضر بيتمخطر على الوادى
العرض غالى وأنا لى أهل ما أنساهم
عضام جدودى هنا وأنا خايف على ولادى
اللمه حلوة تزيد قـوة لنـيل وادى
ومصر يبنيها رجـال ونســاهم
بلدى عزيزة من الجيزة لحد أســوان
شوف وجه بحرى هواه بحرى وخيره عـم
عرابى منه لأنه قلب من صـوان
فى اسكندرية مدافعه ودفعه اتزوقوا بالدم
لو كان وراه حد زى السـد فى أسوان
كان تم فرحه لكن جرحه الزمان يا عـم
يا ريس اللمه عدم اللمـة تعبتنا
لها عقب بطال والعزال تعبتنـا
قسمين وبالنيل لم يدخل عويل بيتنا
دى مصر بيتنا وحياتنا حبها فى دمى

وكلما سمعت شيخ العرب وهو يغنى هذا الموال الذى يمد غيه يده وأيدينا جميعا لثورة يوليو وقائدهـا تذكرت زوجته وأولاده وما يعانونه من حرمان ومشاق • فأنا يا ابنتى أصبحت أعرف تفاصـيل حياته وكل شيء يتصل بأهله وبيته • فنحن هنا نقضى الليالى الطويلة المتعاقبة وكل منا يحكى للآخر عن أولاده ، وعن الزوجة أو الخطيبة ، وعن أول فتاة خفق قلبه بحبها ، وعن الأشياء الصغيرة والكبيرة التى

حدثت له • ان كلا منا يخرج للآخرين وفى أوقات الصفاء والحنين ما يحمله فى أعماقه من ذكريات وعواطف وأشـجان •••

أن ينام انسان بجوار انسان آخر ليالى طويلة تمتد الى شهور وتمتد بعد ذلك الى سنين • أن يتوقع هذا الانسان ويتوقع معه الانسان الآخر الخطر فى كل لحظة ، ويعيشا معا لحظات الرعب والفزع • أن يشعر الانسان أنه انتزع من حياته ، وأن حياته أصبحت مجرد ذكريات ، وأن يجد بجواره انسانا آخر يفتح له أذنيه ويفتح له قلبه • أن تخلو حياة الانسان من الناس والبيوت والمقاهى والشوارع ، وأماكن العمل ، وأماكن اللهو ، والأطفال والحدائق ، والناس وهم يمشون فى الشوارع،والناس وهم يتحدثون ويضحكون ، ويشعر ويحس بالخواء فى داخله وبأن عليه أن يخلق لنفسه من واقعه الذى يخلو من كل هذه الأشياء حياة جديدة تعتمد على ذكرياته وعلى الصور التى اختزنها للأشياء التى رآها والأحداث التى عاشها والعواطف والأحاسيس التى نبض بها قلبه • فأنا يا ابنتى ومعى أكثر من خمسمائة نعيش فى هذا المنفى البعيد عن كل ما له علاقة بالحياة التى مازالت تنبض وتجرى وتتدفق فى كل مكان فى وطننا وفى العالم الواسع • وأنت يا ابنتى لم تعودى ابنتى وحدى • لقد أمضيت ليالى عديدة وأنا أحكى القصص والنوادر عنك ، وعن كل صغيرة وكبيرة فى حياتك • وهكذا أصبحت ابنة للكثيرين هنا • وهكذا عرفت أنا الآخر كل شىء عن « شيخ العرب » وأولاده ، وعرفت أشياء لم يبح بها لزوجته عن أيام شبابه الأولى وعن « نعيمه » الحلوة الرفيعة القوام ذات الصوت الذى يشبه همس الريح والتى وقع فى غرامها وكانت حبه الأول • كان يلقاها مع غروب الشمس فى المزارع القريبة من بيته متحديا بذلك التقاليد الصارمة لمشايخ العرب من أعمامه وخيلانه•

لقد تقدم ابن عمها لخطبتها ولم يكن فى مقدورها أن تبوح لأهلها بكلمة واحدة عن علاقة الحب التى تربطها بشيخ العرب • وتزوجت « نعيمة » ابن عمها وبعد سنين تزوج « شيخ العرب » امرأة أخرى لا تربطه بها علاقة حب ، وظلت ذكريات حبه لنعيمة تعيش بين طيات قلبه ، وظل يتنسم أى خبر عنها ، ويرى صورتها أمام عينيه كلما خلا الى نفسه ، ويراها أحيانا وهو جالس مع زوجته وبين أولاده • وجاء اليوم الذى رأى فيه جنازة تمر أمامه ، فوقف اجلالا للموت مثل باقى الناس ، وسأل عن اسم الميت فعرف أنها « نعيمة » التى أحبها ، وظل واقفا يتابع النعش وهو يتحرك أمامه ويغيب عن ناظره، وأخذت الدموع تنهمر من عينيه وهو يستعيد أجمل ذكريات شبابه •

وهكذا عرفت أيضا كيف تواجه زوجة «شيخ العرب» مسئوليات اطعام أولاده الأربعة وكلهم فى عمرك وعمر أخويك • لقد تركها يا ابنتى وهى تضع الطرحة السوداء على رأسها ولا تخرج من البيت الا لزيارة الأقارب أو الجيران • وها هى الآن تشمر عن ساعديها وتصنع من الورق الملون طائرات صغيرة ، وتخرج من بيتها كل صباح وتجلس على الرصيف فى ركن الشارع لتبيع تلك الطائرات للأطفال • وها هى الآن يا ابنتى وفى نفس ركن الشارع وكلهم هناك يعرفونها ويعرفون « شيخ العرب » تجلس وأمامها وابور الغاز الموقد وطاسه يغلى فيها زيت الطعام تصنع أقراص « الطعمية » وتبيعها للناس • أتصدقين يا ابنتى أنها لم تذكر شيئا عن هذا لزوجها طوال السنين التى أمضاها معنا فى السجن ، وأنها تبدى له فى كل خطاب يصل منها استعدادها لأن ترسل له كل ما يحتاجه وتشيد بمكانته التى تزداد علوا فى نظرها ، وتطمئنه على أولاده ، وتؤكد له أنها واثقة أنه سيعود اليها

ظافرا منتصرا ، لأن الله كما كتبت فى أحد الخطابات يجازى الحسنة بعشرة أمثالها وهو لم يقدم طوال حياته للناس الا الخير والا الحسنات •

وشىء آخر يا ابنتى أود أن أقوله لك عن أخلاق «شيخ العرب» • ان الرجل الكبير لا يعلن عن نفسه ، ولا يقول للناس حين يلقاهم « أنا كبيركم الذى علمكم السحر » • والرجل الكبير يا ابنتى حين يتحدث مع الناس البسطاء ليس فى حاجة الى أن يبرم أشنابه وينتقى حين يتحدث اليهم العبارات الضخمة التى لا تحمل معنى ليوقع فى قلوبهم الرعب أو ليخروا لعظمته ساجدين وهم يطلبون عطفه ورحمته « أبانا الذى فى السماوات — اعطنا اليوم — واغفر لنا — ذنوبنا — ليأتى ملكوتك — لتكن مشيئتك — خبزنا كفافنا — اعطنا اليوم — واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا — ولا تدخلنا فى تجربة ولكن نجنا من الشرير » • والرجل العالم يا ابنتى هو أكثر الناس ادراكا بأنه ما زال فى حاجة الى مزيد من العلم ، وأكثر الناس استعدادا للاعتراف أمام غيره بأنه يجهل بعض المسائل سواء أكانت صغيرة أم كبيرة • والرجل المحبوب من رفاقه وأصدقائه وأهله لا يعلن نيابة عنهم ويقسم باسمهم أنهم يهيمون به حبا ، وأنه الملاك الذى نزل اليهم من السماء ليمجدوه ويسبحوا باسمه آناء الليل وأطراف النهار • لقد أصيب انسان كبير وعظيم وقائد وأحد صناع الثورة التى غيرت وجه العالم بتلك الأمراض يا ابنتى ، وكانت النتيجة أنه جاء اليوم الذى قدم فيه الحساب ودفع ثمن كل ما اقترفت يداه وهو فى قبره • انه الرفيق « ستالين » يا ابنتى الذى كانت قلوب مئات الملايين من البشر فى الاتحاد السوفييتى وفى كل ركن من أركان العالم تخفق من أجله بالألم والأسى والحزن والعبرة ، لأن الحساب لا يرحم

حتى هؤلاء الذين حققوا للبشرية أمجادا كبيرة ، ولأن الحساب لا يرحم حتى هؤلاء الذين ماتوا وفوق رؤوسهم تيجان النصر • لقــد صلب « المسيح » يا ابنتى ليكفر عن خطايا البشر وما زال الناس يخطئون لأن ظروف الحياة تغرى بعضهم بالخطيئة وترغم البعض الآخر على الوقوع فى براثنها • ورفع جسد ستالين من قبره يا ابنتى وصلب أمام البشرية كلها ليكفر عن خطيئة عبادة الفرد وما يزال البعض بيننا وفى كل مكان يرتكب ومع سبق الاصرار نفس الخطيئة أو الجريمة•

اينا لكى ننقذ الناس البسطاء من هذا الخطر ، أن نتعلم كيف نحاسب المسئولين ، وكيف ننقدهم ، وأن ننحيهم عن تلك المسئوليات اذا ركبوا رؤوسهم وأصروا على أنهم آلهة وليسوا من الطينة التى صنع منها البشر •

لقد كتبت لك يا ابنتى عن الأربعة والخمسين عاما التى عاشها «شيخ العرب» • كان فى مقدوره أن يتعالى ، وغيره من الرفاق هنا ممن لم يعش مثل تلك الحياة الحافلة بالأحداث والمعارك والتضحيات يتعالى ويتحدث عن أمجاد الآخرين وبطولاتهم وينسبها لنفسه وكأنه صانعها ، ويصل تماديه الى حد التباهى بها أمام هؤلاء الذين صنعوا تلك البطولات ، ويكاد يقول لهم ولنا جميعا مع كل خطوة يخطوها •

« أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفونى »

وكان فى مقدوره أن يدعى العلم والمعرفة وهو العامل الذى لم تتح له الظروف أن يكمل دراسته الأولية وتمكن رغم ذلك بجهوده وبمساعدة بعض الرفاق من أن يدرس علوم الاقتصاد والفلسفة وأن

يقرأ كل ما وصل الينا من أعمال كبار كتابنا • كان فى مقدوره أن يكتفى بهذا القدر الذى حصل عليه من قبل وخـلال السـنين الطويلة التى أمضاها فى السجون والمعتقلات ؛ ومع ذلك فقد أدرك هنا ومنذ وصولنا الى الواحات أنه فى حاجة الى لغة أخرى ليتمكن من قراءة الكتب التى لم تترجم بعد الى اللغة العربية • وكلما رأيت « شـيخ العرب » يا ابنتى وهو الرجل الذى تجاوز الرابعة والخمسين من عمره وهـو يحمل كراسة وقلما وهو يطلب من أحد الزملاء أن يكتب له كلـمة جديدة أو جملة صغيرة باللغة الفرنسية ، وكلما رأيته وهو ينتحى ركنا مع رفيق فى عمر ابنه ويظل الساعات الطوال ينصت اليه وهو يشرح له احدى مشاكل العلم أو الفلسفة أو الاقتصاد • كلما رأيته فى احدى هذه الحالات يا ابنتى ، تخيلته وكأنه عاد الى الوراء أربعين عاما ليعوض ما فقده منـذ كان صبيا فى عمـر مخلص ، انتابنى الاحساس بالتقدير والاحترام للتواضع ، وللعلم الذى جعل « شيخ العرب » يحمل الكراسة والقلم مثل تلميذ صغـير ، ويجهد نفسه ، ويعطى الساعات الطوال للحصول على مزيد منه •

وشىء آخر سأذكره لك يا ابنتى عن هذا الرفيق يذكرنى بكلمات قالها المسيح لتلاميذه حين نجتمع فى حفل أو لتوديع زميل ، وهو يبعد عن مكان الصدارة الذى تعود عليه القوم أو « المعلمين » كما نسميهم هنا أن يجلسوا فيه واختار مكانا متواضعا بين الزمـلاء البسطاء ، وكلما سمعت الصيحات تتعالى من المحتفى به ومن رفاق عديدين « تعالى هنا يا شيخ العرب » ، كلما رأيته يا ابنتى فى مثل هذه الحالات تذكرت تلك النصيحة التى قالها المسيح لتلاميذه ••• « متى دعيت من أحد على عرس فلا تتكىء فى المتكأ الأول لعل أكرم منك قد دعى فيه ، فيأتى الذى دعاك واياه فيقول لك أعط هذا المكان لهذا ،

فحينئذ تبدأ بخجل تأخذ الموضع الأخير • بل متى دعيت فاتكىء فى الموضع الأخير ، حتى اذا جاء الذى دعاك ليقول لك يا صديقى ارتفع الى فوق ، لأن كل من يرفع نفسه يتضع ، وكل من يضع نفسه يرتفع »•

« وشـــيخ العرب » معروف بصفات أخرى مميزة له من بينها الكرم والشـــهامة والهطرسة • وسأترك الهطرســـة يا ابنتى لأنه لن يمارسها معك ، ولا يمكن أن يكتشفها الا هؤلاء الذين عاشوا معه فترة طويلة • فهو حين تخدش كرامته ، وحين يواجه بالتحدى من انسان آخر ، وحين يحس أن أحدا يتعالى عليه ، فى تلك الحالات يا ابنتى يلعن الدنيا والناس ويستخدم فى لعناته ألفاظا وعبارات تختلف كل الاختلاف عن أسلوبه فى الحديث فى أوقات الهدوء والتعقل •

سأترك هطرسة « شيخ العرب » يا ابنتى وأتحدث عن صفة الكـــرم التى تلازمه والى ستلحظينها فى الدقيقة الأولى بعد لقائه • ان «شيخ العرب» على استعداد لأن يجوع ويعطى غيره طعامه • وهو دائما يعطى ملابسه ومن بينها بدلة السجن التى يسلمونها لنا لغيره من الزملاء • وفى أحيان كثيرة يعود الينا فى الزنزانة التى نســـكنها حافى القدميـــن ونعرف حينئذ أن واحدا من الرفاق الذين تخصصوا فى الحديث عن أمجاد وكرم حاتم الطائى قد تمـــكن من أن ينسى « شيخ العرب » مخاطر السير حافى القدمين على بلاط السجن وأن يدفعه الى أن يخلع حذاءه ويقدمه هدية له • ونواجه نحن يا ابنتى بمشكلة ايجاد حذاء آخر لشيخ العرب لأننا نعرف أنه سيضع قدميه فى الصباح فى أول حذاء تقع عينه عليه مهما كان مقاسه • ويبحث الضحية عن حذائه هنا وهناك ، وحين يعثر عليه فى قدمى « شـــيخ العرب » ويطالبه برده ، يقول له وهو يبتسم عبارته التقليدية « والله

يا شيخ أنا جبيت أكرمك وأكرم الجزمة بتاعتك وأفسحها فى رجلى شوية » • وبنفس السهولة والسرعة التى أخذ بها الحذاء يخلعه من قدميه ويعطيه لصاحبه ، ويظل يتسكع بين الزنازين وهو حافى القدمين وكأنه ملك يتفقد حالة رعاياه حتى يعثر على حذاء جديد • وتستمر المشكلة حتى يتمكن « شيخ العرب » من أن يجد حذاء لا يطالب به صاحبه • وكم تندر الزملاء هنا على كرم « شيخ العرب » حين يعطى الأحذية والأشياء الأخرى التى لا يملكها كهدايا للرفاق الآخرين • ان الزملاء الصعايدة هنا يقولون له بلهجتهم الحلوة « اللى يفندر يفندر من دبيه » ونحن أبناء الوجه البحرى نقول له نفس العبارة « اللى يفنجر يفنجر من جيبه » • ومع ذلك لم يغضب شيخ العرب مرة واحدة وهو يستمع الى تلك العبارة ، ولم يتوقف عن الفنجرة من جيوب الآخرين •

وكرم « شيخ العرب » يا ابنتى من هذا النوع • فالشاى من الأشياء العزيزة لأن أغنى الأغنياء هنا يحصل من النقود التى ترسلها له أسرته على مبلغ لا يصل الى ما تعطيه الست ماما لك ولأخويك • ان الرفيق الذى ترسل له أسرته خمس جنيهات كل شهر لا يأخذ منها الا خمسين قرشا فقط ويصادر المبلغ الباقى لحساب الحياة العامة والاحتياجات الأساسية للجميع دون تمييز بين غنى وفقير لأن الغالبية هنا فقراء وأبناء فقراء • والشاى هنا من الأشياء الأساسية التى لا نحصل عليها من الحياة العامة الا مرة واحدة كل مساء • وكوب الشاى الخاص من الأشياء التى لا يستمتع بها الا عدد قليل من الرفاق • ومع ذلك لا يكاد « شيخ العرب » يرى أحدنا وفى يده كوب من الشاى حتى يمد يده ويأخذه منه وهو يقول •••

ـ والله يا شيخ أنا قلت الواحد يجبر بخاطرك ويكرمك ويشرب معاك شفطتين تلاتـة •

ونفس الشيء يحدث حين يرى أحدنا وهو يأكل نوعا آخر من الطعام غير الفول والعدس واليمك الذى يوزع علينا جميعا فى السجن انه لا يترك واحدا منا أو من سكان الزنازين الأخرى دون أن يشرفه ويجبر بخاطره ويعلى مقداره بمشاركته فى طعامه •

ومن حظ « شيخ العرب » يا ابنتى أن أمامه فرصا لا تنفذ أبدا لممارسة كرمه • فنحن هنا وعن طريق الحياة العامة وبتمويل منهـا نحتفل بأعياد ميلاد جميع الزملاء • لقد كان عيد الميلاد فى بيتنـا بدعة اخترعها مخلص ، وكان عيد ميلادك يا ابنتى هو تجربتنا الأولى• وكم أتمنى أن تحافظ الست ماما على هذا التقليد ، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون الاحتفال فى اليوم الحقيقى لميلاد كل منكم • وأعدك يا ابنتى أنى سأشترك معكم فى كل احتفال ، فأنا هنا لن أعـدم الوسيلة لاضاءة شمعة فى تلك المناسبة • وهكذا ترين يا ابنتى أن أعياد الميلاد لا تتوقف هنا أبدا ، ويحدث أحيانا أن نحتفل بعيد ميلاد زميلين أو ثلاثة فى نفس اليوم • لقد ولدتنا أمهاتنا فى ليالى متفرقـة وبقدر عدد تلك الليالى السعيدة تقام هنا حفلات تستمر حتى الساعة الواحـدة بعد منتصف الليـل •

ان « سيد درويش » وهو العبقرية التى عرفها شعبنا فى عصره الحديث والنشيد الذى وضع ألحانه « بلادى بلادى ـ لك حبـى وفؤادى » وأغنياته عن « القلل القناوى » و « الصنايعية » و « بنت مصر» و «الشيالين» و «شمس الشموسة» و «على قد الشوق» والتى تنبض كلماتها وألحانها من صميم حياتنا ، وأم كلثوم وعبد الوهـاب وعبد الحليم حافظ وعبد المطلب ونجـاة الصغيرة وغيرهم من المغنين

والمغنيات كلهم لهم معجبون ومريدون هنا نقضى ليالينا ونحن نستمع اليهم من زملاء أصبحوا فى مرتبة المطربين المحترفين • ان هـؤلاء الزملاء يا ابنتى الذين نتندر عليهم ونسميهم « العوالم » يحجزون للحفلات وتجهز لهم الموائد ويتعززون ويتدللون قبل البدء فى الغناء • وبينى وبينك يا ابنتى لن يجرؤ واحد من الرفاق الذين استفردوا بنا هنا على أن يغنى دقيقة واحدة أمام أهله أو أصدقائه بعد أن يفرج عنه •• و «شيخ العرب» على رأس «العوالم» أو مطربى الحفلات • ويمكنك أن تلحظى ذلك حين ترينه وهو يحمل البرش الذى ينام عليه ويتنقل به كل ليلة من زنزانة الى زنزانة أخرى ، ويستبدل بزميل آخر من الزنزانة التى يقام فيها الاحتفال • ولا يوجد بيننا يا ابنتى من يجروء على أن يقيم حفلة دون أن يدعو اليها « شيخ العرب » • وأكثر من ذلك « من من العوالم والمطربين هنا فى مقدوره أن يجذب الجمهور ويلهب حماسه ويشركه فى الغناء والتصفيق والتهليل مثله ؟ »

انى أتخيله يا ابنتى وهو يستقبلك فى زنزانتنا ويمارس كرمـه المعتاد معك • لن تجدى شيئا بجوار البرش الذى ينام عليه ، ومع ذلك سيكون أول من يتقدم منا لاستقبالك • سيأخذك من يدك ، ويطبق البطانية التى يستخدمها لغطائه ، ويحولها الى شلتة مريحة ويجلسك عليها ، وسيمد يده ويأخذ بطانية الزميل الذى ينام بجواره ، ويطبقها هى الأخرى ، ويضعها خلف ظهرك لتحميك من رطوبة الحائط • وبعد دقيقة واحدة ، وهو ما زال يكرر السلامات والتحيات ، سترينه وهو ينظر بعينيه هنا وهناك ، ثم يتحرك الى أحد الأركان ويعود اليك وفى يده باكو من البسكويت ، وستسمعينه يا ابنتى وهو يضحك ويقول لك بغاية البساطة وهو يفتح باكو البسكويت ، ويضعه أمامك •

« والله يا شيخه أنا قلت لازم تكرمى الراجل ده » •

وسترينه يا ابنتى وهو يشير بيده الى الزميل الغلبان أو الضحية الأولى • وبعد دقائق قليلة سيترك فرشته مرة أخرى وينقض على مكان آخر ، ويعود اليك وفى يده هذه المرة كوز حلاوة أو علبة لبن • وسترين يا ابنتى الضحايا وهم يتطلعون الى شـيخ العرب ، ثـم يتطلعون اليك وعلى وجوههم علامات الحرج والاشفاق والارتباك ، لأن شيخ العرب تماديا فى الكرم سيكسر كوز الحلاوة ويأخذ نصفه ويقدم لك النصف الآخر ، ويكسر بذلك قلب الزميل الذى رتب حياته على أن يأكل جزءا صغيرا منه فى افطاره أو عشائه • كل هذا لاكرامك يا ابنتى • وبعد ذلك سيأتى دور الشاى • سيطلب من أحد الزملاء أن يعده ، ويطلب من زميل آخر أن يحضر الأكـواب ، ثم يفتح علبة اللبن ويضع فى كوبك أولا وفى كوبه بعد ذلك كل ما فيها ، وتكتشفين وأنت ترشفين الشاى الساخن أن ما تشربينه ليس الا لبنا مركزا • الشىء الوحيد الذى يملكه « شيخ العرب » والذى سيقدمه لك من عنده هو فنه أو المواويل التى ألفها ولحنها والتى سيغنيها لك دون أى الحاح من جانبك • وهنا يا ابنتى ينجلى هذا الزميل ويبدو فى أحسن حالاته ، ويجذب كل من فى الزنزانة الى الغناء معه • وتأتى التحايا بعد ذلك لك ولشيخ العرب من الزنازين الأخرى • وهـكذا ستنتهى الزيارة وتخرجين من الزنزانة وأنت تشيدين بشيخ العرب وكرمه الذى لا يدانيه فيه حاتم الطائى أو غيره ممن جاءوا قبله أو بعده • واياك يا ابنتى أن تستجيبى لشيخ العرب اذا قال لك وهو يودعـك « والله يا شيخه الواحد عاوز يكرمك وتقعدى معانا هنا شـهرين تلاتـه » •

* * *

- ٨ -

هل يمكنك آن تخرجي من البيت ، وتسيرى فى الشارع ، وتذهبى الى المدرسة ، وقدماك بلا حذاء •ان الانسان الذى حصل على أبسط حقوقه كانسان لا يفعل ذلك • حتى الحيوانات يا ابنتى لا تفعل ذلك ، فهى تصنع لنفسها الحذاء الذى تحتاجه • فللجمل خف ، وللحصان حافر ، ولسائر الحيوانات الشىء الذى يحل محل الحذاء ، والذى يمنع عنها الحرارة والبرودة ، ويقيها من الأشياء الضارة فى الطريق • والانسان يا ابنتى ، ومثل الحيوانات تماما ، يتشكل جسده حسب الظروف التى يعيش فيها ، والعمل الذى يقوم به • الانسان هو الآخر ، اذا لم يجد الحذاء الذى يلبسه فى قدميه ، اذا كان يعمل فى الحقل فى البرد القارس أيام الشتاء ، وتحت وهج الشمس فى فصل الصيف ، فليس أمامه الا أن يحدث تغييرات فى قدميه تمكنهما من مواجهة هذه الأوضاع كما تفعل الحيوانات تماما • من أجل ذلك يا ابنتى تحولت أقدام الغالبية العظمى من الفلاحين فى وطننا الى شىء آخر يختلف عن قدميك ، وقدمى الست ماما ، وأقدام غالبية الناس• لقد تكون للفلاح فى وطننا وخلال سنى العمل خف سميك صنع من خليط الطين والعرق والدم ، يختلف عن طبقة الجلد الرقيقة التى تغطى أقدامنا •

ومنذ سنى شبابى الأولى يا ابنتى ، ومثلما حدث لانقاذ الفلاح من الماء الملوث بميكروب البلهارسيا وميكروبات عديد من الأمراض ، ارتفعت الصيحات لرفع وصمة الحفاء عن جبين شعبنا ، وتوالت الوعود فى الصحف ، وفى خطب العرش ، وفى بيانات الوزراء ، عن ملايين الأحذية التى ستنتقل الى أقدام الفلاحين • وفى هذه المـرة يا ابنتى ، ولأن هذه المسألة تبدو للعيان أمام أنظار العالم كلـه ، ولان القدم العارية لا يمكن اخفاؤها كما يختفى الماء فى جوف الانسان، فى هذه المرة ، تأسست وقامت الجمعيات الخيرية لمقاومة الحفاء • ووضع على رأس تلك الجمعيات الأميرات والنبيلات وصاحبـات العصمة من زوجات الزعماء والوزراء وكبار الاقطاعيين • وجمعت تلك الجمعيات عشرات الألوف من الجنيهات • ونشرت الصحف قوائم التبرعات فى أماكن بارزة • وكما يحدث دائما انتهز عدد من مـلاك الأراضى ومن العاطلين بالوراثة الفرصة وتبرع كل منهم بألف أو ألفين من الجنيهات من أجل سواد عيون الأميرات والنبيلات ، ومن أجل الحصول على لقب الباشوية كما كان يحدث فى تلك الأيام ، ومن أجل ليلة خمر ورقص وتهتك كانوا يقيمونها علنا باسم مقاومة الحفاء يا ابنتى • وبعد كل تلك الحفلات وقوائم التبرعات ظل حفاة الأقدام حفاة الأقدام ، وظلت وصمة الحفاء مثل وصمة الأمية عالقة بجبين وطننا وظلت الأجيال الجـديدة من أبناء الفلاحين تصنع فى أقدامها بمرور سنى العمل والشقاء أخفافا مثل أخفاف الجمال •

لم نكن ندرك أيامها يا ابنتى أن انقاذ الفلاح من الماء الملـوث والأقدام العارية وكهوف الطين لا يمكن أن يتم قبل أن ننقذه وينقذ نفسه من هؤلاء الذين اغتصبوا الأرض التى يزرعها والثمـار التى تخرج منها بكده وعرقـه • من كل ذلك يمكنك أن تدركى يا ابنتى

أهميه الحذاء للانسان ••• والزميل الذى اخترت أن أقدمه لك بعد « شيخ العرب » هو رئيس نقابه عمال الأحذية فى القاهرة • والحذاء الذى تلبسينه صنعه أحد العمال الذين انتخبوا هذا الزميل ليمثلهم ويدافع عن حقوقهم • وكان هذا الزميل يا ابنتى على رأس هـؤلاء الذين يخططون لانشاء المصانع الجديدة التى ستنتج ملايين الأحذية لتذهب الى أقدام الفلاحين ، ولتنزيل عن وطننا الوصمة التى ظلت عالقة به مئات السنين • كان فى السنين الأخيرة يا ابنتى يجـمع حوله العمال لاقامة مصانع تعاونية يقيمها العمال أنفسهم ، لتنقذهم من عبودية واستغلال أصحاب المصانع •

ليس من السهل على يا ابنتى أن أقدم لك هذا الزميل ••• وأنت لم تعرفى بعد العمل النقابى فى الظروف الصعبة التى يواجه فيها العمال سيطرة أصحاب المصانع على الانسان وعلى الآلات والأدوات التى يستخدمها لصنع الأحذية والأقمشة والأشياء الأخرى التى نحتاج اليها فى حياتنا • فمن المفروض يا ابنتى فى النقابى الناجح أن يحوز أولا على ثقـة العمال فى شخصه وكفاءته ، باعتباره خير من يمثلهم ويدافع عن حقوقهم • ومن المفروض بعد ذلك ، أن يكون مناورا ماهرا ، أى أن يعرف كيف يصل الى الهدف الذى يريده أو نصـفه أو حتى ربعه بطرق ملتوية ، لأن الطريق المباشر فى العمل النقابى ليس له وجـود •

ان المواد الخام التى يحتاجها العامل لصناعة حذاء من السهل تقدير ثمنها لأنها تباع فى السوق فى القاهرة وفى أى مكان آخر بسعر محدد • والعامل يعرف الثمن الذى يباع به الحذاء الذى صنعه فى المحلات التى ترينها فى الموسكى وشارع عبد العزيز وشارع فؤاد •

وفى مقدورك أنت يا ابنتى باضافة الأجر الذى يأخذه العامل عن كل حذاء يصنعه الى ثمن الجلد والنعل والخيط والمسامير والأشياء الأخرى التى استخدمها ، ثم بطرح حاصل الجمع من الثمن الذى يباع به الحذاء ، أن تعرفى المبلغ الذى يتقاسمه صاحب المصنع وصاحب دكان الأحذية وهما الطرفان اللذان يملكان أدوات انتاج الحذاء ووسائل توزيعه ، وأن تقارنيه بالمبلغ الذى يأخذه العامل وهو الذى قام بعملية الانتاج من الألف الى الياء وحول الجلد والنعل والأشياء الأخرى الى الحذاء الذى تلبسينه . وستذهلين يا ابنتى من نتيجة الجمع والطرح . ستعرفين حقيقة بشعة هى التى نسميها الاستغلال الرأسمالى . ستعرفين بعد اجراء عمليات الجمع والطرح أن الأسطى ومساعده والصبى الذى يعمل معها يأخذون جميعا خمسين قرشا مقابل كل حذاء وأن صاحب المصنع وصاحب الدكان يتقاسمان وحدهما ضعف هذا المبلغ عن كل حذاء ينتج فى المصنع . وستكتشفين يا ابنتى فى النهاية لماذا يوجد العمل وسهر الليالى والجوع والحرمان فى جانب ، ويوجد التعطل والغنى والجشع والبذخ فى جانب آخر .

والرفيق الذى سأقدمه لك قضى أيام صباه وزهرة شبابه وهو يصنع أحذية من ألوان وأشكال ومقاسات مختلفة ، وتدرج فى هذه المهنة من صبى الى مساعد الى عامل الى رئيس للعمال . وكانت مشكلته منذ بدأ يحسب احتياجات بيته وأولاده ، أنه بدأ فى نفس الوقت عملية الجمع والطرح التى حاولت أن أشرحها لك .

وكلما أجرى تلك العملية الحسابية البسيطة ، التى يمكن أن يجريها أى تلميذ فى المدارس الابتدائية ، كان يجد أن النتيجة ليست

فى صالحه • لقد اكتشف أن نصيبه ، وهو المبلغ الذى يتسلمه كأجر من صاحب المصنع كل أسبوع ، لا يكفى احتياجاته واحتياجات أسرته• وكانت الحاجة يا ابنتى هى التى دفعته الى أن يقارن المبلغ الصغير الذى يأخذه بالمبالغ الكبيرة التى يأخذها صاحب المصنع ، ويحاول أن يزيد نصيبه قروشا أخرى • وهذه يا ابنتى ليست بالمهمة السهلة فى مجتمع وضع القوانين وأقام مراكز البوليس والمحاكم لضمان سيادة هؤلاء الذين يملكون الثروات والمصانع وعددهم لا يتجاوز المئات على الآخرين الذين يصل عددهم الى مئات الالوف والذين لا يملكون الا قوة عملهم • من أجل ذلك يا ابنتى كانت مسألة حصول عمال الأحذية على قرش آخر يضاف الى أجورهم من أكثر المسائل تعقيدا وصعوبة وخطرا •

لم يكن من الممكن أن يذهب هذا الرفيق الى صاحب المصنع ويقول له •••

ـ لقد جاء فى الانجيل والقرآن يا سيدى أن من يزرع يحصد بقدر ما يزرع ، وأنت ياسيدى تربح خمسين قرشا عن كل حذاء دون أن تزرع حذاء واحدا ، وصاحب الدكان يا سيدى الذى يبيع نفس الحذاء الذى صنعته لابنى وابنتى ولأبناء غيرى من العمال يربح هو الآخر مثل هذا المبلغ دون أن يفعل شيئا الا توصيل الأحذية التى نصنعها الى أيدى الناس • اعطنا يا سيدى عشرة قروش أخرى ، ويكفيك أنت وزميلك المبلغ الكبير الباقى •••

لو تمت المسألة بهذه البساطة لكان فى مقدور زميلى أن يذهب الى صاحب المصنع فى اليوم التالى ويطالب بعشرة قروش ثانية ،

ويظل يلاحقه حتى يحصل على المائة قرش كلها وهى حصاد عمله • ان شيئا من هذا لا يحدث لأن صـاحب المصنع يا ابنتى لم يقـع اختياره على صناعة الأحذية لأنه درسها فى كتاب وتعلمها فى مصنع ، أو لأنه يحب الأحذية ومن هواة جمعها • لو كانت المسألة مسـألة حب أو هواية لكان فى مقدوره وبالثروة التى يملكها أن يشترى عشرات الأحذية لنفسه كما كان يفعل الملوك والأمراء فى الزمن الماضى • ان الرجل الغنى يا ابنتى ينشىء مصنعا للأحذية ليضاعف ثروته عـن طريق الربح الذى يحصل عليه من كل حذاء ينتج فى ذلك المصنع • ولو وجد أن صناعة أخرى مثل صناعة جوارب النايلون تدر أرباحا أكثر لاختار تلك الصناعة • ان ما يعنيه هو أن يحصل من استغلال الثروة التى يملكها على ربح مضمون وعلى أكبر ربح ممكن • وهو يحدد نوع الصناعة التى يختارها على هذا الأساس ، لا على أساس احتياجات الناس ، أو مصلحة عليا للوطن • وتأتى عملية أخرى بعد ذلك ، وهى كيف يحصل على أكبر ربح من السلعة التى ينتجها المصنع الذى يملكه • ان الطريق الوحيد الذى يمكنه من الحصول على أكبر ربح يا ابنتى هو سلب العامل أكبر جزء من النصيب الذى يستحقه فى مقابل الجهد الذى بذله لتحويل قطع الجلد والنعل الى حذاء • ومن أجل ذلك يا ابنتى ينشب صراع عنيف وشاق ومعقد بين العامل وصاحب المصنع حول الشىء الذى يمكن زيادته وانقاصه وهو أجر العامل لأن الأشياء الأخرى تباع فى السوق وفى كل مكان بثمـن محدد • والرفيق الذى سأقدمه لك علمه هذا الصراع أشياء كثيرة أولها الايمان بالاشتراكية والكفاح من أجل تحقيقها ، وخلق بينـة وبين هؤلاء الذين يرتعدون كلما ذكر اسم الاشتراكية مقترنا بالطبقة

العاملة عداء مستحكم ، وأدى به هذا الصراع الى السجن والمنفى هذه المرة ومرات عديدة أخرى •

اسمه « عبد الله » ••• وأثناء طوابير الصباح فى حوش سجن القناطر قبل أن نرحل الى الواحات كنت أجد سعادة كبيرة حين نسير معا جنبا الى جنب • لا أدرى كيف اختار كل منا الآخر ، ولا أدرى أيضا كيف استمرت تلك الرابطة طوال فترة وجودنا هناك • ونمت بيننا صداقـــة وطيدة من نوع الصداقات التى لا يحصل عليهـــا الانسان بسهولة والتى يضيفها الى أجمل الأشياء التى كسبها فى حياته • وبعد أيام قليلة من سيرنا فى الطابور معا وجنبا الى جنب شعرت بأنه بدأ يفتح لى قلبـــه • وذات يوم أخذ يغنى بصـــوت مسموع وكأنه يغنى لنفسه أغنية عبد الوهاب القديمـــة •

« ظالمانـــى ليـــه
هاجـــرانى ليـــه
ايه بس ذنبـــى
وياكـــى ايـــه
يا روضة الحسن الفتان
ليه تمنعى وردك عنـــى
وليه ما بسمعش الألحان
من بلبلك لما يغنـــى »

وكانت هذه الأغنية يا ابنتى ، والتى لم يغيرها حتى آخر يوم ، مثل النشيد الذى نبدأ به طابور الصباح •• وكان يغنيها وهو ينظر الى بعيد ولا يحس بوجودى ، ويعبر بنظراته الحالمة أسوار السجن وكأنه يرى ويناجى انسانا آخر يسمع صوته ويحس بنبضات قلبه • وبعد

الغناء نبدأ الحديث عن حياته وحياتى وعن أشياء أخــرى لا رابط بينها • كنت أحس به يا ابنتى وهو يعتصر قلبه حين يغنى • كنت أعرف أنه تزوج منذ أكثر من عشرين عاما ، وأنجب من البنات ثلاثا ومن الذكور نفس العدد ، وأن أكبر أبنائه شغل مكانه فى مصــنع الأحذية وكمسئول عن البيت • كنت أعرف أن كلمات الأغنية ليست موجهة الى فتاة صغيرة أحبها عبد الله وهجرته • وبمرور الأيام •

ومن عبارات كان يقولها أحيانا وهو لا يدرى ، عرفت وتأكدت أنه يحب زوجته ، وأن حنينه اليها هو الذى جعله يتذكر هذه الأغنيــة ويعتصر قلبه وهو يغنيها •

وذات يوم ، وبعد أن انتهى من غناء الفقرة الأولى توقف عن الغناء • كان ما زال ينظر الى بعيد ولا يحس بوجودى وأنا أسير بجواره ، وأحسست بأنه يحبس دموعــه وأحسست بأنه سيجهش بالبكاء ، وفكرت سريعا فى أن أنتزعه من حالة الحزن التى انتابته ، وتجرأت ووجهت اليه هــذا السؤال •

ــ الا يا « عبد الله » مراتك لما كانت بتدلعك كانت بتقول لك ايــه ؟

وعلت وجهه الأسمر علامات الدهشة والاستنكار وكأنه يقول « كيف تجرؤ على أن توجه لى مثل هذا السؤال ؟ » ، وفى لحظــات جرى الدم فى وجنتيه البارزتين ، وخرج من عينيه بريق لم أكن أراه فيهما من قبل ، ورد على بلهجة الطفل الصغير الذى يراوغ ليخفى أحد الأسرار عن أبيــه •

– تدلعنى – يا راجل عيب – دى من يوم ما اتجوزنا وهيه ما تقوليش الا يا أسـطى عبد الله •

وظللت وراءه ألح عليه فى السؤال • وأناور وألف وأدور معه ، وأحرك أشجانه ، لأعيده الى الأيام والليالى الحلوة ، حتى انتزعت منه السر « عبـد » (بضم العين) • هذا هو اسم الدلع يا ابنتى الذى كانت تناديه به زوجته فى ساعات الصفاء والسعادة والحب • ومن يومها وأنا أدلعه أنا الآخر وأناديه بهذا الاسم فى أوقات صفائنا • وهكذا يا ابنتى سأقدم اليك هذا الرفيق حين تلقينه باسم « عبد » •

لقد حدثتك عن قدم الفلاح ، وكيف تحولت الى شىء أكثـر خشونة من خف الجمل • ان الأسطى « عبد الله » يا ابنتى هـو الذى يذكرنى كلما رأيته بقدم الفلاح والارتباط بينـها وبين خف الجمل • كنت يا ابنتى وأنا أعيش بين الناس ، وأراهم فى المقـاهى والشوارع ، أحاول أن أعرف طباع الانسان ومهنته مـن شـكله وتعابير وجهه وطريقته فى السير أو الحديث • كنت أهتم بوجـه الانسان ، واكتشفت بعد التمعن فى النظر الى ملامحه أشياء كثيرة • وأنا يا ابنتى من هؤلاء الذين يؤمنون بأن كل شىء فى حياة الانسان يظهر على وجهه أولا بأول ويترك بصماته عليه ، النجاح والفشل ، الراحة والاجهاد ، الحب والكراهية ، السعادة والتعاسة ، الصدق والكذب ، الطمأنينه والأمل والقنوط واليأس ••• كل شىء تنبض به قلوبنا يرسم ويسجل على الوجوه ويكشف عما جرى ويجرى فى داخلنـا •

وأنا لا أنسى ما حدث يا ابنتى فى أول لقاء بينى وبين الست ماما بعد خطوبتنا • لقد جاءت الى القاهرة لزيارة أختها ، وذهبت

الى بيت خالتك لأراها • كنت قد أمضيت ساعات طويلة فى الليلة السابقة وأنا أرتب بينى وبين نفسى ماذا سيحدث بعد أن آخذها من بيت أختها ونخرج وحدنا ، والكلمات التى سأقولها لها والأماكن التى سنذهب اليها • وحين دخلت بيت خالتك ، واستقبلنى زوجها ، واصطحبنى الى حجرة الجلوس ، تأكدت يا ابنتى أن شيئا مما رسمته فى خيالى لن يتحقق • لقد عرفت ذلك من أسلوبه ، ومن ملامح وجهه، ومن طريقته فى الحديث • وحدث ما توقعته • لقد بقينا أكثر من ساعة نتبادل الحديث • وحاولت مرات عديدة أن أغير مجرى الحديث ، وأن أفهمه بالتلميح أنى ما حضرت لبيته الا لأرى خطيبتى ، وأن أى وقت يمر دون أن أراها هو وقت ضائع بالنسبة لى • وأخيرا دخلت خالتك ومن ورائها الست ماما ، وجلستا فى ركن بعيد من أركان الحجرة • وبعد دخولهما وجلوسهما معا ، توقعت أن يتغير مجرى الحديث ، وأن أسمع من خالتك عبارات الترحيب بى ، وأن أنتهز الفرصة من جانبى وأطلب من الست ماما أن تعد نفسها للخروج معى • ولم يحدث ما كنت أتوقعه • لقد ظل زوج خالتك يا ابنتى يتابع حديثه عن نفسه وعن مرؤسيه فى العمل ، وعن خناقة حدثت بينه وبين رؤسائه ، وكيف تمكن من أن يوقف هذا الرئيس عند حده ويرغمه على التراجع والاعتذار • كنت يا ابنتى أحاول أن أبدو أمامه وكأنى أنصت الى كل كلمة يقولها ، وأحاول فى نفس الوقت أن أختلس من حين لآخر نظرة عابرة الى أمك • وأخذت أفكر وأنا أستمع اليه • ماذا أفعل لأوقفه عن سرد حكاياته التى لا تنتهى عن رؤسائه ومرؤسيه وشخصه وعمله ؟ ماذا أفعل لأشرك خطيبتى فى الحديث ولأدفعها لأن تترك الركن البعيد الذى انزوت فيه لتجلس بجوارى •

ووجدت نفسى أقول له ودون مقدمات •

— وريـنــى كفك •

وحاولت أن أقلد « عبد الوهاب » وهو يغنى لحبيبته فى فيلم « رصاصـــة فى القلب » وقلت له ••

— انت ما تعرفش انى أقدر أعرف أفكارك ، ومن ايديك أقدر أقول لك ايه اللى ها يجرالك •

وتوقفت الكلمات التى كان سيقولها فى فمه ، ومد ذراعه نحوى، ووضع كفه بين يدى • وصدقينى يا ابنتى أنه لم يحدث قبل ذلك اليوم ولم يحدث بعد ذلك اليوم أن طلبت من انسان أن يرينى كفه لأعرف منها أسرار حياته ومستقبله • وأنا لا أدرى حتى اليوم لم وضعت نفسى فى هذا المأزق وكيف اخترعت حكاية الكف هــذه • وأخذت يا ابنتى مقلدا ما يفعله المنجمون المحترفون أقلب كفه وأحرك أصابعه وأطويها وأفردها وأنظر الى وجهه وأنا أقول له أشـياء تتعلق بحياته وماضيه ومستقبله ، وأراه وهو يهز رأسه مؤمنا على كلامى ، فأزداد ثقة فى نفسى وأقول له أشياء أخرى ، وانتزعت منه بعد أن فرغت من قراءة كفه اعترافا بأنه يعتبرنى أمهر قــراء الكف الذين رآهم فى حيــاته •

ونظرت الى الركن البعيد حيث تجلس الست ماما وأختها ••• فى تلك الأيام يا ابنتى كانت أمك تخجل منى ، وتخفض عينيها كلما نظرت اليها • وتجرأت خالتك وتحركت من مقعدها ، ووضعت كفها فى يدى • كنت وأنا أمسك كفها وأتطلع الى وجهها ، أسبح بخيالى الى وجه أمك ، وأكاد أحس بلمسات يدها بين يدى • وأخيرا جــاء

دور أمك ، وجلست بجوارى ، والتقت أيدينا ، والتقت عيوننا • ونسيت أنها جاءت لأقرأ كفها كما فعلت مع الآخرين • ونسيت أن زوج خالتك ما زال يتابع كل حركة أو همسة تصدر منى • وعشت مع الست ماما لحظات لن أنساها أبدا • كنت أنظر الى وجهها والى عينيها الزرقاوين لا لأعرف الماضى أو أتنبأ بالمستقبل ، ولكن لأعيش تلك اللحظات وأستمتع بها • ولم تكن أمك جميلة فى عينى فى يوم من الأيام كما كانت جميلة فى تلك اللحظات • ويومها يا ابنتى اكتشفت ، وأنا أمعن النظر الى ملامح وجهها ، الطيبة ، البساطة ، والشجاعة ، وصفات أخرى جميلة تتمتع بها أمك العزيزة • وتأكدت بعد ذلك ، وطوال السنين التى عشناها معا ، أنها تتحلى بتلك الصفات وصفات جميلة أخرى جعلتنى أضعها فى مكان سام لم تنزل منه أبدا •

ها أنا يا ابنتى ، ودون أن أدرى ، قد بحت لك بسر من الأسرار التى أخفيتها عن الست ماما حتى اليوم • لقد حدثتك عن هذا اللقاء بينى وبين أمك ، وكيف اخترعت حكاية قراءة الكف ، لأوضح لك أن فى مقدور الانسان أن يعرف أشياء كثيرة عن انسان آخر اذا نظر الى وجهه والى كفه والى أجزاء أخرى من جسده • وفى مقدور بعض الناس أن يعرفوا مهنة الانسان بمجرد رؤيته • وهناك حالة أخرى لا تحتاج الى فراسة وهى حالة الأسطى « عبد الله » • كان من السهل عليك أن تعرفى مهنته بمجرد النظر اليه • أما الآن ، وقد تغيرت ظروف حياته ، بعد أن أمضى معنا ثلاث سنوات فى السجن ، فلم يعد من السهل اكتشاف الأشياء التى كانت تميزه عن غيره من الآدميين • فأنت لن تلحظى يا ابنتى أن احدى ساقيه أقصر من الساق الأخرى بخمس سنتيمترات • والترزى الذى صنع له أول

سروال لم يلحظ ذلك حين أخذ مقاس احدى ساقيه ولم يجد ضرورة لأخذ مقاس الساق الأخرى • لقد أصيب بالحيرة بعد أن أعد السروال ، وظل يبحث عن السبب ، حتى اكتشف فى النهاية أن العيب ليس فى السروال (البنطلون) ولكن فى ساقى الأسطى عبد الله لأن احداهما أقصر من الأخرى بخمس سنتيمترات • ان السبب فى ذلك ، كما عرفته من هذا الرفيق ، أنه أمضى أكثر من ثلاثين عاما من حياته وهو يصنع الأحذية • فهو لم يولد من بطن أمه واحدى ساقيه أقصر من الساق الثانية • ان هذه الصفة يا ابنتى التى لا توجد فى كل الناس يتميز بها عمال الأحذية وحدهم • ومن السهل عليك أن تعرفى الجزماتى وأن تميزيه عن غيره اذا دققت النظر اليه أثناء سيره ، لأنك ستكتشفين أنه يزك باحدى قدميه ، وكأنه يمشى بساق خشبية وساق ثانية من لحم ودم وعظام •

انك يا ابنتى حين تشترين حذاء جديدا ، وترينه جميلا فى قدميك، وتتباهين به أمام زميلاتك فى المدرسة ، لا تعرفين الظروف القاسية التى يعيش فيها عمال الأحذية ، ولا العمل المضنى الذى يذلوه لصناعة هذا الحذاء • سأحاول أن أذكر لك بعض الحقائق التى سمعتها من الأسطى « عبد الله » ونحن نسير معا فى طابور الصباح • ان تلك الحقائق ستوضح لك الأسباب التى جعلت احدى ساقى الأسطى « عبد الله » أقصر من الساق الأخرى • انه يصل الى المصنع فى الساعة التاسعة صباحا • وهو يظل جالسا أمام البنك — وهو منضدة خشبية صغيرة — حتى الساعة الحادية عشر أو الثانية عشر مساء • ومعنى ذلك يا ابنتى أنه يعمل كل يوم ثلاث عشر ساعة كاملة • فاذا عرفت أن ساعات العمل المحددة باللوائح والقوانين وأوامر الحكومة لا يجب أن تزيد عن ثمانى ساعات ، فمعنى ذلك أن

الأسطى « عبد الله » ظل منذ صباه يشتغل ضعف الوقت ويستهلك نصف عمره مقدما • وهو لا يذهب لى أحد المطاعم أو الى بيته لتناول غذائه • انه يأكل رغيف الخبز وأقراص الطعمية وطبق الفول وهو جالس أمام البنك ، ودون أن يغسل يديه قبل الأكل ولا بعده • ان السبب فى ذلك يا ابنتى هو حاجته الى كل دقيقة ليتمكن من أن ينجز الطريحة المفروضة عليه ، وهى عدد الأحذية التى يقدمها كاملة الصنع لصاحب المصنع كل أسبوع • ان نقص حذاء واحد من الطريحة معناه اقتطاع أو خصم جزء من المبلغ الذى يأخذه كأجر كل أسبوع، وهذا ما لا يقوى على احتماله ، لأن حصيلة ايراد الأسبوع قد حددت لتفى فقط بالاحتياجات الضرورية له ولاسرته • وهذا هو السبب يا ابنتى فى أن عمال الأحذية يواصلون العمل ليلا ونهارا فى مواسم الأعياد ودخول المدارس ليتمكنوا من الحصول على دخل أكبر • وهم يا ابنتى فى مثل هذه الحالات لا يعطون أى اعتبار لصحتهم ، ويقع عدد كبير منهم فريسة للحشيش والأفيون وأنواع أخرى من المخدرات • وكم من عمال الأحذية يا ابنتى جف عوده ومات وهو فى ربيع عمره بسبب ادمانه تعاطى تلك السموم •

والمصنع الذى يعمل به الأسطى « عبد الله » مثل أكثر من ثمانمائة مصنع آخر فى القاهرة ليس به آلات ولا ماكينات • ان الانسان نفسه هو الآلة والماكينة التى تدور • والأدوات التى يستخدمها هى السكين الذى يقطع به الجلد ، والمخراز الذى يثقب به النعل ، والشاكوش الذى يدق به المسامير ، والقوالب الحريمى والرجالى التى يشد عليها وجه الحذاء ونعله ، وقطعة ثقيلة من الحديد تشبه قاعدة المكواة يدق عليها قطع الجلد والنعل ليسويها ويفردها •

والأسطى « عبد الله » يا ابنتى يقوم بعمليات لا تتغير ، فهو يضع قطعة الحديد الثقيلة سى فخذه ، ويضع عليها قطعة الجلد ، ويدق ويظل يدق ، ويرفع قطعة الجلد بعد أن يسويها ويضع قطعة جلد أخرى ، ويدق ويظل يدق حتى ينتهى من قطع الجلد التى يتكون منها وجه الحذاء . ومع مرور الزمن يا ابنتى ، ونتيجة لضغط كتلة الحديد وعملية الدق المستمرة ، تكون للأسطى عبد الله فى الجزء الذى يعلو ركبته خف مثل خف الجمل . لا بد أنك سمعت عن الكالو الذى يظهر أحيانا فى اليد فى أو فى أصابع القدمين . ان الأسطى «عبد الله» يسمى هذا الخف بالكالو لأنه يبدأ صغيرا ويظل يكبر ويكبر ولا يتوقف نموه أبدا . وثقل القالب والدق المستمر عليه كان لهما أثر آخر على ساق الأسطى « عبد الله » غير الكالو أو الخف الآدمى . لقد أدى الدق والضغط المستمر على ساق واحدة وهى الساق اليمنى الى أن تصبح يوما بعد يوم أقصر أو أقل طولا من الساق اليسرى . وهذا هو السبب فى الخمس سنتيمترات الناقصة فى طــول تلك الساق . والأسطى « عبد الله » يقوم بعد ذلك بعملية أخرى . انه يقبض بيده على طرف الكماشة ، ويضغط عليها بأصابعه وراحة يده ، ليشد وجه الحذاء على القالب ويثبته بالمسامير . وقد أدت هذه العمليـــة يا ابنتى الى أن يتحول كفه الأيمن الى كالو آخر يزداد سمكا واتساعا وخشونة يوما بعد يوم .

واليد اليسرى هى الأخرى لم تفلت من الاصــابة . انه يلف عليها خيط الدوبارة ويستعمل قطع الشمع الأصفر ويشــده ويبرمه ليزداد قوة ومتانة وليستخدمه بعد ذلك فى خياطة النعل السميك . وقد أدت هذه العملية يا ابنتى ، وأدى تكرارها كل يوم الى أن جانبا

من يده اليسرى قد تحول الى قطعة من اللحم الميت ، ازدادت سمكا وخشونة مع مرور السنين • ولم تقف اصابة اليد اليسرى عند هذا الحد يا ابنتى • لقد نتج عن عملية شد الخيط أن تكون وسط قطعة اللحم الميت حفرة ظلت هى الأخرى تزداد عمقا واتساعا مع مـــرور الســـنين •

والأسطى « عبد الله » يجرى كل هذه العمليات وهو جالس أمام البنك ثلاث عشرة ساعة يقضيها كل يوم وهو جالس محنى الظهر أمام البنك ، يدق المسامير ، ويشد الخيط ، ويضرب بالشاكوش على قالب الحديد • لقد نتج عن ذلك يا ابنتى أن ظهر الأسطى « عبد الله » لم يعدمستقيما مثل ظهور باقى الناس • لقد تكون له فى الظهر شىء آخر نسميه الأتب •

وكما حدثتك عن الفلاح وكيف تكون له خف مثل خف الجمل ، ها أنت ترين كيف مات اللحم فى أجزاء عديدة من جســـد الأسطى « عبد الله » ، وكيف تعطل نمو ســـاقه اليمنى وأصبحت أقصر من الســـاق الأخرى • لقد قص على الأسطى « عبد اللـــه » يا ابنتى حكايات عديدة عن المشاكل التى سببتها له تلك التغيرات التى حدثت فى جسده • وكانت حكاياته لى يا ابنتى من النوع الذى يدفع الانسان الى أن يضحك ويبكى فى نفس الوقت •

واليوم يا ابنتى وبعد سنى السجن التى حرم فيها الأســـطى « عبد الله » من العمل ، ومن استخدام المخراز والشاكوش والأدوات الأخرى التى كان يستخدمها ، لم تعد الأشياء التى كانت تميزه عن غيره من الرفاق واضحة كما كانت فى الأيام الأولى لسجننا • لقـــد عادت الحياة الى الأجزاء الميتة فى جسده ، وأصبحت يده ملساء مثل

آيدى الأطباء والمحامين وأساتذة الجامعات وباقى الزملاء • وامتلأت الحفرة العميقة التى كانت موجودة فى جانب يده ، واختفت آثــار الخف الخشن من قدميه • كل شىء فى جسد الأسطى « عبد الله » عاد كما كان • حتى الأتب ذاب وضاع هو الآخر ، وأصبح يمشى منتصب القامة مثل غيره من الناس العاديين • كل الآثار التى كانت موجوده فى جسده ، والمرتبطة بمهنته ، وبالعمل الذى كان يقوم به ، لم يعد لها وجود • شىء واحد ، هو الروماتيزم الذى أصيب به منذ صباه ، لم تقو شمس الواحات التى لا تنقطع صيفا ولا شتاء ، ولا التمارين الرياضية التى يقوم بها كل صباح مع باقى الرفاق ، ولا الأقراص وجرعات الدواء المختلفة التى يواظب على تناولها على أن تنتزعه من جسده •

ان المصنع الذى يعمل به الأسطى « عبد الله » مثل ســائر مصانع ورش الأحذية الأخرى لا ينفذ اليه ضوء الشمس ، ولا تتوافر فيه الشروط الصحية التى طبعتها الحكومة منذ عشرات الســنين وأنشأت وزارة الصحة ومكتب العمل وهيئات رسمية أخرى لمراقبة تنفيذها • لقد قال لى يا ابنتى ، أنه كان يحس طوال الثلاثين عامــا التى أمضاها فى ورش ومصانع الأحذية ، بأنه كان كمن يضع قدميه وجسده كله فى بركة ماء • كانت الرطوبة كما ذكر لى تنفذ من أرض المصنع وجــدرانه الى كل جزء فى جســده • وكانت النتيجة ، هى اصابته بنوع من الروماتيزم تغلغل فى عظامه ورفض أن يبرحها ، وما زال يحيره ويحير الأطباء ، ويحول أيامه ولياليه الى ساعات من الشقاء والألم المستمر •

وما زلت أذكر يا ابنتى العبارات التى قالها مخلص يوم عيد ميــلادك • ما زلت أذكر ما قاله كلمة كلمة ، وأتخيل مســتقبله من

خلالها • ما زلت أذكر الوعد الذى قطعه على نفسه باسمه واسمك واسم أختك ناديه ؛ بأن تحبوا العمـــال والفلاحين • وحب العمال والفلاحين يا ابنتى يتطلب منكم معرفة الحقائق عن حياتهم ومشاكلهم، وعن الدور الذى يقومون به فى بناء وطننا وتحديد مسار مستقبله • ان توقف الفلاح والعامل عن الانتاج معناه أن تموت البذرة فى بطن الأرض ، ومعناه أن لا يتحول الدقيق الى خبز ، وخيوط القطن الى قمـــاش ، وقطع الجلد الى أحذية ، وقوالب الطوب الى مســـاكن ومستشفيات ومدارس • ومعناه أيضا يا ابنتى ألا يصل الماء والكهرباء الى البيوت وأن تتحول القطارات وعربات الترام الى أجساد ميتة، وألا تصدر الصحف فى الصباح ، وأن تتوقف الحياة كلها كما يموت الانسان عندما تتوقف نبضات قلبه • ان جميع الخيرات التى ننعم بها فى وطننا يا ابنتى هى من صنع أيدى العمال والفلاحين • ان شعبنا الذى حول آلامه وأحلامه الى حكم وأمثال وسخريات لاذعة يقول « طباخ السم بيدوقه » • وكم من الأشياء يصنعها العمـــال ويزرعها الفلاحون ولا يذوقونها • وحب العمال والفلاحين يا ابنتى يتطلب منا أن نقف الى جانبهم لينالوا حقهم من تلك الخيرات • ولعل ذلك يا ابنتى هو السبب الأول لوجودى هنا ومعى العشرات أو المئات من خيرة المثقفين من أبناء وطننـــا وجنبا الى جنب مع الأســـطى « عبد الله » والعمال الآخرين • ولعل ذلك يا ابنتى هو السبب الذى دفعنى الى أن أحدثك عن الأرض وأقـــدام الفلاحـــين ، والورش والمصانع ، والانتاج والأرباح ،.وكل الأشياء الأخرى التى ذكرتها لك فى رسالتى ، والتى أخاف أن تكون محاولتى لتبسيطها لك قـــد زادتها تعقيدا وغموضا •

* * *

– ٩ –

مرت ليال عديدة لم أمسك فيها القلم ولم أحاول الكتابة لك .
لقد وقعت فريسة للمرض وما زلت مريضا حتى اليوم يا ابنتى ..
الانفلوانزا .. الانفلوانزا اللعينة . من كان يصدق أن فى مقدورها
أن تفعل ما فعلته بنا فى الأيام والأسابيع الماضية؟فى الخارج،وأيام
كنت أتمتع بالحرية وأعيش تحت سقف بيتنا ، وأنعم برعاية أمك ،
لم أكن اعتبر الأنفلونزا مرضا من الأمراض . كنت أنظر اليها
كنوبة برد لا يحتاج الانسان لعلاجها والخلاص منها أكثر من الاعتكاف
يوما أو يومين فى البيت وبلع عدد من أقراص الاسبرين .. أما هنا
يا ابنتى فالأمر يختلف كل الاختلاف . الأنفلوانزا هنا ليست مجرد
مرض يكفى لعلاجه الراحة والاعتكاف فى البيت يوما أو يومين . لقد
تحولت الى حمى والى وباء لم يترك واحدا منا دون أن يصرعه .
وخلال أسبوع واحد تحولت جميع الزنازين الى عنابر للمرضى ...
الأجساد ممددة على الأبراش . حرارة عدد من الرفاق وصلت الى
ما بعد الأربعين . الرعشة التى تفقد الانسان القدرة على التحكم فى
جسده فينتفض كل جزء فيه ويظل ينتفض وكأنه سينتزع من الأجزاء
الأخرى وينفصل عنها . الجسد كله يهتز ويكاد يطير ويرتفع الى أعلى
ثم يهبط ويقع على الأرض .

الانســـان يا ابنتى وهو يفقد الســيطرة على عقله •كل شىء يختلط ويتشابك ويتباعد ويظهر ويختفى ويبرق ويظلم مثل سواد ليل بلا نجوم • الهلوسة والهذيان وصور الماضى والحاضر والمســتقبل والأشياء الجميلة والأشياء القبيحة المفزعة وكل شىء يتزاحم ويختلط بالشىء الآخر ولا يكاد يبدو حتى يختفى ، الانسان الذى يدب بقدميه على الأرض ويتطلع بعينيه وينظر الى بعيد ، ويرى الأفق وكأنه يرى الكون كله ، ويرى الاشجار والورود وسنابل القمح وثمار البرتقال وأفواج الحمام وكلها تهتز وترقص فيهتز قلبه ويرقص طربا ونشوة ويرى مداخن المصانع وهى تشرئب فى السماء ، ويرى الطائــرات نخترق السحب وتخترق السماء الأولى والســماء الثانية والثالثة والرابعة لتصل الى اللانهاية ، ويرى كل شىء فى الطبيعة وعلى الأرض وفوق السحب وفى أعماق المحيطات ، فيحس ويتأكد بأنه سيد هــذا الكون وأن الكائنات كلها لم توجد الا من أجله ولتنفيذ رغباته ، هذا الانسان الذى كان يدب بقدميه على الأرض ويهزها ويفجر ما عليها وما فى باطنها وقد أصبح يحس بأنه تحول الى ريشة تتقاذفها ريح عاتية وأمواج بحر هائج لا يهدأ أبدا •

الانفلونزا يا ابنتى • انفلونزا من نوع آخــر عاشت فى منـــاخ آخر وفى ظروف أخرى غير ظروف الحياة العادية التى كنت أعيش فيها معكم والتى تعيشون فيها الآن • كل شىء هنا يختلف عن مثيله فى الحياة العادية • تخيلى البيت الذى تعيشين فيه وقــد نقل من الحى الذى تعرفينه الى المكان الذى أقيم فيه فى سجن الواحات ، أكثر من ثمانمائة كيلو متر بعيدا عن القاهرة • ومن حوله لا توجــد الا كثبان الرمال والجبال التى تبدو من بعيد وتحجب الأفق ولا شىء

آخر • لا شيء بالمرة يا ابنتى • لا شيء يمت بصلة الى الانسان أو الحيوان أو النبات أو حتى الجماد • لا شوارع ولا مقاهى ولا حوانيت ولا مدارس ولا مستشفيات ولا أطفال ولا نساء ولا رجال • حتى الطيور لم تعرف طريقها الى هذا المكان •

فى البيت الذى تعيشين فيه يا ابنتى دورة مياة ومطبخ ، وصالة كبيرة ، وشرفة تطل على الشارع ، ومقاعد للمائدة ، ومقاعد أخرى مريحة فى غرفة الجلوس ، وأسرة عليها مراتب من القطن وملاءات بيضاء نظيفة ، وملابس من ألوان وأشكال مختلفة ، وأطباق من الصينى وأطباق ملونة من البلاستيك وملاعق وشوك وسكاكين وأكواب للماء وأكواب للشاى وفناجين للقهوة ، ومكتبة بها عشرات الكتب ومذياع وبك آب ومجموعة كبيرة من الاسطوانات ، وصابون للوجه وصابون من نوع آخر لغسيل الملابس ، ومكتب كنت أجلس عليه حين أكتب ، وجرس بجوار الباب الخارجى كنت أسمع رنينه فى الداخل مرات عديدة كل يوم • وفى البيت الذى تعيشين فيه يا ابنتى أصوات كنت أسمعها منذ الصباح الباكر وكانت لا تتوقف أبدا • صوتك يا ابنتى ، وصوت أخويك ، وصوت المذياع وهو ينقل الينا أغنيات شعبنا الحلوة وأناشيد الوطن الجديدة ، وأصوات الأصدقاء والأقارب الذين كانوا يزورننا ، وأصوات الحياة التى تستيقظ مع الفجر وتموج حول بيتنا فى الشارع ومن المقهى ومن الحوانيت والتى كانت تشعرنا بالطمأنينة وبأننا جزء من مدينة كبيرة ومن عالم واسع يموج بالحياة والحركة • وفى البيت الذى تعيشين فيه يا ابنتى ذكريات لحياة كاملة امتدت بأيامها ولياليها • حياة لم يخل فيها يوم من نبضات القلوب ومن البسمات ومن الآمال الكبيرة التى كانت تجعلنا نظن أنه لا توجد حياة أخرى أجمل من تلك التى نحياها •

كل شيء هنا يختلف عن الأشياء التى كنا نراها ونستخدمها فى الحياة العادية • فى الزنزانة الواحدة يعيش أربعة عشر شـخصا يجلسون وينامون ويتحركون على أبراش من أحبـال الليف رصت متلاصقة على أرض الأسفلت العارية ورص فوقها الآدميون•ولا شيء آخر يا ابنتى الا أوانى الألمنيوم التى يصرف لنا فيها الطعام وجرادل البول ، وجرادل أخرى للماء الذى نشربه • هذا هو كل ما فى الحجـرة يا ابنتى • أما كيف ننام ، وكيف يحصل كل منا على الهواء الذى يتنفسه ، وكيف فرض علينـا أن ننسى لون السـماء وقت الغروب وفى ليالى الصحراء التى سمعنا الكثير عن سحرها ، فهذه أشـياء لا يضعها القائمون على أمر السجن فى اعتبارهم •

وباب الزانزنة الذى يجثم على القلب والصدر والأعصاب ، والذى يغلق كل يوم فى الساعة الخامسة مساء ولا يفتح الا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى • أربع عشرة ساعة متواصلة تغلق فيها تلك الكتلة من الحديد على أربعة عشر شابا ورجلا فى صدورهم ضحكات وسخريات أمر من العلقم وأمنيات كبيرة لأولادهم وزوجاتهم وللناس البسطاء فى وطنهم وفى العالم كله • أربع عشر ساعة كاملة ومتواصلة يا ابنتى ليس فى مقدورك خلالها أن تتحركى يمينا أو شمالا أو شرقا أو غربا • حدود حركة كل منا هى مساحة البرش الذى ينام عليه والذى لا يتعدى حجم الانسان طولا وعرضا •

النظام الذى اختار الواحات الخارجة ليبنى فيها هذا السجن ، النظام الذى وصل فى عدائه وحقده على أصحاب الفكر والعقيدة الى حد أن يقيم لهم هذا السجن الخاص فى قلب الصحراء ليحرمهم من أى نسيم للحياة يأتى اليهم من عائلاتهـم ومن وطنهم • أتصدقين

يا ابنتى أن احدى حكومات الخيانة أيام كان الملك فاروق يتربع على عرش مصر هى التى وقع اختيارها على هذا المكان ، وهى التى وضعت مشروع هذا السجن ، وخصصت عشرات الألوف من الجنيهات لتنفيذ بنائه . ومن سخريات القدر يا ابنتى ، التى لا تحدث فى أى بلد آخر مثلما تحدث فى وطننا ، أن افتتاح هذا السجن قد تأجل مرات عديدة حتى جاءت ثورة يوليــو وافتتحت سجن الواحات الخارجة بعد شهور قليلة من الاطاحة بعرش فاروق وحكمه . من كان يصدق يا ابنتى أن كراهيــة فاروق وحكوماته للمناضلين من أبناء شعبنا لن تتوقف وستستمر وستظل تلاحقهم عبر السنين على يد هؤلاء الذين خلصوا الشعب من جرائمه وخياناته ؟

فى فترات المرض يا ابنتى يجد الانسان نفسه مشغولا بأشياء غريبة لا تشغل فكره أيام الصحو والعافية . هذا ما كان يحدث ونحن خارج أسوار السجن ونعيش مثل سائر الناس . فما بالك اذا أصيب الانسان بالمرض والحمى فى هذا المكان البعيد المنعزل عن الحياة . لم يحدث أبدا أن فكرت فى الموت وفى احتمال مواجهة هذا الشىء الغامض الذى رأيته أول مرة وأبى يصارعه والذى لم يفلت أبى ولم يفلت أى انسان آخر من قبضته . الصراع الوحيد الذى لم ينتصر فيه الانسان مرة واحدة ومنذ وجد الانسان على هذه الأرض هــو صراعه مع الموت . وطوال الليالى الماضية كنت أفكر فى السر الغامض الذى يخفيه الموت عنا . وفكرت يا ابنتى فى الأهرامات الثلاث التى بناها أجدادنا لتكون مساكن لهم بعد الموت ، وفى القبور الأخرى التى ظلوا يقيمونها وهم أحياء ، ويضعون فيهــا الملابس والحلى وقطــع الأثاث وأدوات الزينة وألوان الطعام والشراب والأشياء الأخرى

التي كانوا يستخدمونها ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن حياتهم ستستمر بصورة أخرى فى تلك الأهرامات • كنت أفكر وأسائل نفسى وأنا أهذى وجسدى كله ينتفض من نوبات الحمى « أى فارق بين ما يحدث لنا الآن وما كان يفعله أجدادنا ؟ ألا يكون السجن الذى نعيش فيه الآن قبرا مثل تلك القبور التى كان يبنيها أجدادنا لتكون مأواهم بعد أن ينتقلوا الى الحياة الثانية ؟ لماذا لا نكون قد انتقلنا الى الحياة الثانية ونحن لا ندرى ؟ لماذا لا تكون الحقيقة أن هؤلاء الذين أرادوا لنا أن نعيش حياة العبيد فى حياتنا الأولى قد أعدوا هذا القبر لنا لتكون حياتنا الثانية من نفس نوع حياتنا الأولى ؟ الشقاء الذى نعيشه هنا هو نفس الشقاء الذى عشناه فى الماضى وبصورة مختلفة • كل ما كان ينعم به خوفو فى قصره فى حياته الأولى قد نقل الى الهرم الذى بناه ليكون مقره الملكى فى الحياة الثانية • ونفس الشيء حدث لنا • طابور الأسرى ربطوه بالسلاسل وشحنوه فى احدى عربات السكة الحديد التى تستخدم لشحن الحيوانات وجاءوا به الى هنا • كل شيء هنا قد أعد ليكون قبرا يسع مئات الآدميين ليعيشوا فيه حياة أخرى مثل تلك التى عاشها جدودهم الذين حفروا قناة السويس • الأبراش وجرادل البول وجرادل الماء وأوانى الطعام وكتل الحديد الأسود • كل شيء هنا بلا فن وبلا ذوق وبلا احساس آدمى وكأنه بنى من الكراهية والقسوة والشراسة وروح الانتقام • الهذيان يا ابنتى • الهلوسة •• الانسان حين تصبح الحقيقة التى يراها ويعيشها أشياء مثل الأشباح لا يمكن تصديقها •••

وهنا يا ابنتى وبين جدران أربعة وخلف أبواب مغلقة مازلنا ندب بأرجلنا على الأرض ، ونحاول أن نهز الجدران وقضبان الحديد .

ونحاول أن نصرخ بلا كلمات ، وأن نفجر الآمال التى لم تبرح صدورنا ، وأن نستحضر آمامنا صور الأشياء العزيزة التى عشنا أيامنا ولياليها من أجلها • ومن هذا المكان النائى البعيد يا ابنتى نشرئب بقلوبنا وأعيننا وآذاننا وأنوفنا نحاول أن نشم رائحة الحياة فى بيوتنا• وهنا يا ابنتى وفى هذا العالم الآخر يفكر الأب فى زوجته وأولاده كما فكرت فيك وفى أخويك وفى زوجتى ويسأل نفسه •• « هل كنت عادلا معهم ؟ هل ما حدث كان يجب أن يحدث ؟ هل من حق الانسان من أجل أفكاره ومعتقداته والطريق الذى اختاره لنفسه وبارادته أن يبعث فى حياة أقرب الناس اليه ولسنين طويلة الأسى والحزن والمرارة ؟ هل من حق الانسان الذى اختار طريق التضحية أن يفرض التضحية على غيره وحتى على الأطفال من أبنائه الذين لم يعرفوا بعد شيئا عن تاريخ الانسان وتطور البشرية ؟ هل من حق الأب الذى يناضل من أجل سعادة البشر جميعا أن يحرم أولاده من حنان الأبوة ومن الطمأنينه التى يبعثها وجود الأب بين أبنائه ؟ والمرأة أو الزوجة التى تضيع منها السنين الطويلة وهى فى ربيع العمر وهى تعرف أن السنين التى تضيع لن تعوض أبدا ؟ •••• وأسئلة عديدة أخرى يا ابنتى ظللت أوجهها لنفسى وأنا فى حالة تشبه الهذيان •

ان كل انسان يا ابنتى يفكر فى ذاته وفى مستقبله وفى أسرته ، ويسعى ويكد ويكدح طوال حياته ليحصل لنفسه ولأهله على حياة هنيئة مستقرة • حتى الأنبياء وأصحاب الرسالات الذين عرفناهم لا يستثنون من هذه القاعدة • ولكن ، اذا كانت الحياة ليست حياة ، واذا كانت الحياة بلا جمال وبلا حب وبلا تعاطف بين البشر ، واذا كانت الحياة بلا بسمات على وجوه الناس ، واذا كانت حياة الأطفال

هى المرض والتعاسة والحرمان من القوت وأن نتركهم يواجهون العواصف وكأنهم ليسوا بأبنائنا وفلذات أكبادنا ، واذا كانت الحياة هى ملايين الناس يمضون مراحل شبابهم ورجولتهم وهم يساقون فى المزارع والمصانع كقطعان العبيد بينما يملك عدد قليل من الناس كل شىء ويلتهم كل شىء ويبيع ويشترى فى أرض الوطن وفى كرامة الانسان وحتى فى عرضه ، اذا كانت الحياة بهذه الصورة يا ابنتى فالشىء الوحيد الذى يجعلنا نوافق على أن نستمر فيها أحياء هو أن نعمل على تغييرها . لقد حدث ذلك فى بلاد عديدة يا ابنتى ، ويحدث ذلك اليوم فى الأجزاء الأخرى الباقية من العالم . وعملية تغيير الحياة تجرى على قدم وساق فى كل مكان حتى فى الأجزاء التى كانوا يقولون أن قدم الانسان لم تطأها بعد . والثورات التى هبت وما زالت تهب فى كينيا والكونغو وأنجولا وأجزاء أخرى من قارتنا الافريقية ليست الا التعبير عن تصميم الشعوب على أن تغير واقعها وتنفض عن كاهلها ماضيها الطويل بكل ما فيه من مهانة وفقر وبشاعة . الحرية فى مقابل العبودية ، والسعادة والطمأنينة والعمل فى مقابل الفقر والحرمان والبطالة ، والحب والجمال والفن والثقافة فى مقابل الامتهان والكراهية والجهل والتعصب . ونفس الشىء حدث فى وطننا وكان علينا أن نشارك فى نضال وتضحيات شعبنا من أجل تحقيقه .

كلنا هنا يا ابنتى آباء وأبناء ولنا زوجات وخطيبات وأمهات نحبهم ونتمنى أن نصعد الى السماء لنأتى بكل ما فيها من نجوم ونضعها كحلية على صدورهم . كلنا هنا نتمنى أن نقدم الى زوجاتنا وأولادنا وفى كأس واحدة كل ما فى العالم من جمال وسعادة وهناء ورفاهية . كلنا هنا نعرف معنى الحب ومعنى الأبوة وحق الأم والأب والزوجة . وكلنا هنا يا ابنتى لا نعرف معنى الحب فى حدود أشخاصنا

وعائلاتنا بل نعرفه في حدود البشر جميعا • ومن أجل ذلك يا ابنتى بل ربما كان هذا هو السبب الأول الذى جعلنا نختـــار هذا الطريق ونفعل ما فعلناه ونهب حياتنا لترفرف السعادة على شعبنا ويرفرف السلام والحب على العالم كله • لم يكن هناك أى طريق آخـــر • لم يكن أمامنا أن نختار بين طريقين يا ابنتى • ان رفاهية الانسان وأهله على حساب استغلال وجوع الآخرين ليست رفاهية ولا تمت للسعادة الانسانية بصلة • انها أكثر اجراما من السرقة وأكثر وحشية وبشاعة من القتل • وأنت يا ابنتى لا يمكن أن تقبلى أن يكون شبعك وهناؤك على حساب تعاسة وشقاء الآخرين ، وأن تكون كرامتك على حساب مهانة الآخرين واذلالهم • وأنت يا ابنتى لا تقبلين أن أختار لنفسى طريق الأنانية وأن أتنكر لطفولتى وصباى وأيام الجوع والشـــقاء والأيام الأخرى التى كنت وأمى نطرق فيها أبواب المدارس بعنف والحاح واصرار وبكل ما يملك الانسان من عناد فلا تفتح أمامنـــا • لم يكن من الممكن أن أتنكر للحياة التى عشتها كابن فقير من أبناء الشعب الفقراء • لم يكن من الممـــكن أن أنسى أهلى من الفلاحين وكهوف الطين التى مازال يعيش فيها غالبيتهم • لم يكن من الممكن وأنا أرى ومنذ أيـــام طفولتى الأرض الواسعة المنبســـطة والزرع الأخضر وهو يرقص ويغنى ولوزات القطن وهى تتفتح وسنابل القمح وهى تبرق مثل وهج الذهب أن أنسى الحياة التى ما زال يعيشها هؤلاء الذين ظلوا آلاف الســـنين يحرثون الأرض وينثرون فيها البـــذور ويروونها ويربتون عليها كما تربت الأم على وليدها •

وسيأتى الوقت يا ابنتى الذى تعتبرين فيه أن أيـــة مهانة أو اذلال أو استغلال لانسان يعيش فى عالمنا هى مهانة واذلال واستغلال لك وللبشرية جميعـــاً •

أن يعيش الانسان حياته ، وأن يجنى ثمار عمله ، وأن يحصل على نصيبه كاملا من كل ما فى بلاده من خيرات ومن كل ما وصلت اليه البشرية من تقدم . أن يقف الانسان على الأرض مرفوع القامة مرفوع الرأس ويتطلع الى الطبيعة وتسرى نشوة الاحساس بالجمال ونشوة البهجة والفرح فى كيانه . أن تخلو الحياة من القذارة ومن التعاسة ومن القسوة ومن الدناءات ومن الجبن ومن القلق ومن احساس الكراهية لانسان آخر . أن نحيا يا ابنتى . نحيا بكل ما فى هذه الكلمة من معان كبيرة . أن نحيا الدقائق والساعات والأيام والليالى ونبضات القلوب وخلجات الصدور . أن نحيا ساعات العمل وساعات الراحة وساعات الحب . أن يكون كل منا صادقا مع الحياة لتكون الحياة صادقة معنا . أن نحيا يا ابنتى لنستخرج ما فى الكيان الانسانى وما فى الطبيعة من سحر وكنوز وأشياء باهرة . هل هناك أجمل من هذا الحلم الذى ما زلت أعيش عليه يا ابنتى ؟ وهل تعطينا الحياة أى بديل آخر ؟ لقد عشنا البديل الآخر ومازلنا نعانى الآثار المتبقية منه ولم يبق الا أن نرى بشائر الحلم لنضمن أن يعيشه أولادنا .

وأنا يا ابنتى لم أكتب هذه الصفحات وأطوف بك هنا وهناك وأنقل لك صورا من تجاربى لأدافع عن نفسى أمامك وأمام أمك وأخويك . أنا لم أكتب ما كتبت لأكسبك الى صفى ولأنتزع رضاءك على الظروف القاسية التى تعيشون فيها أو المصير الذى وضعت فيه الآن والذى قد أرغم على أن أبقى فيه سنوات أخرى . وأنا لن أنسى أبدا الأيام التى عشتها معك والتى كنت خلالها تخافين من مجرد رؤيتى ولا تعترفين بأبوتى . وأنا أدرك يا ابنتى أنك وأخويك تحرمون

الآن من أشياء كثيرة ، وأن عواطف الأبوة لا يمكن أن تنمو دون أن تمارس بين الآباء والأبناء • وأكاد أراكم من بعيد وأتخيلكم وأنتم تكبرون وتكتشفون أشياء جديدة فى الحياة ولا تجدون أمامكم الا الست ماما لتوجهوا اليها الأسئلة والاستفسارات • وكم كنت أتمنى يا ابنتى أن أسمع منكم تلك الأسئلة وأن أنقل اليكم من خلال اجاباتى بعض ما اكتسبته فى حياتى من خبرات وتجارب •

وأكرر يا ابنتى أنى ما كتبت لك هذه الصفحــات لأدافع عن نفسى أمامك وأمام أخويك أو لأفرض عليكم آراء معينة • كل ما كنت أبتغيه وأهدف اليه من الكتابة لك هو أن أعرض عليك الوقائع والأسباب والنتائج وحصاد السنين التى عشتها وأترك لك كامل الحرية لتحديد موقفــك منهــا •

* * *

ماذا بقى عندى يا ابنتى لاقوله لك ؟ أعذرينى يا ابنتى العزيزة ••• لقد غرقت فى الحديث عن أشياء لم أكن أفكر حين أمسكت القلم فى أنى سأتذكرها أو سأتناولها فى كتاباتى • لقد انزلقت دون أن أدرى فى الكتابة عن أشياء تعرفينها وعشناها معا ، وحلقت بخيالى الى بعيد لأراك وأنت فى عنفوان شــبابك تحملين كتبك وتذهبين الى الجامعة ، وتماديت فى الخيال وتخيلتك وقد أصبحت نجمة من نجوم الباليه تقدمين فنك الى شعبنا والى الشعوب الأخرى •

لم أكن أنوى أن أتخيل المستقبل أو أحلم به • كنت أنوى أن أعود الى الماضى وأرجع الى الوراء ثلاث سنوات كاملة • ليلة رأس السنة يا ابنتى وميلاد العام الجديد • كنت تنامين فى حجرتنا وعلى

مخدعنا . الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . أتذكرين ؟ لقد استيقظت مذعورة وأخذت تنظرين حولك باستغراب وفزع وحين وقعت عيناك على وجهت الى هذا السـؤال ...

« فيه ايه يا بابا ؟ مين دول يا بابا ؟ »

ومن لحظتها يا ابنتى وأنا أحس بأنى مدين لك بهذه الرسالة . وها أنا وبعد ثلاث سنوات ، وفى نفس الذكرى ، أوفى الدين وأجيب على سؤالك لأزيل عنك آثار الفزع الذى انتابك فى تلك الليـلة . ترى هل نجحت يا ابنتى ؟ ترى هل ستزيدك رسالتى ثقة فى الانسان وفى المستقبل العظيم الباهر الذى ينتظره ؟

★ ■ ★

وأنت يا ابنتى . أنت مدينة لى أيضا . الست ماما ونادية ومخلص كلهم كتبوا لى . أنت وحدك لم تصلنى منك رسالة واحدة. لقد تركتك وأنت تمسكين القلم وتحاولين أن تكتبى كلمات صغيرة مثل زرع وحرث . وأظن ياابنتى أنك قد تعلمت خلال السنوات الثلاث الماضية كيف تكتبين جملة صغيرة كاملة مثل زرع الفلاح القطن وصنع العامل الطائرة . أظن يا ابنتى أن فى مقدورك أن تكتبى لى خطاب مثل تلك الخطابات التى وصلتنى من الست ماما ومن أخويك . المسألة فى غاية البساطة . جربيها مرة واحدة وسترين كيف ستكون سهلة بعد ذلك . انزعى ورقة من احدى كراساتك وامسكى القلم فى يدك وأكتبى تلك الكلمة الحبيبة الى نفسى « أبـى .. » ثم ضعى القلم فى فمك كما تعودت أن تفعلى أيام كنت أعيش معكم ، وفكرى فى الأشياء الجديدة التى تحدث فى حياتك وفى حياة وطننا والتى سأحس بالزهو والسعادة حين تكتبين لى عنهـا .

وأمامك يا ابنتى زيارة « جاجارين » الى أرض وطننا واشتراك تلميذات المدارس فى استقباله • وأمامك يا ابنتى الزيارة الأخرى التى أتطلع الى سماع أنبائها من الست ماما منذ طلبت منها أن تذهبوا الى البيت الذى تقيم فيه أسرة « لومومبا » وتقدموا باقة من زهور البسلة اليانعة الى زوجته وأولاده باسم أسرتنا الصغيرة وباسم كل شىء جميل ونبيل ومقدس وباسم الآمال التى نعيش عليها وكرمز للاحترام والحب والعرفان بالجميل •

* * *

« سجن الواحدات الخارجة »
أكتوبر – ديسمبر ١٩٦١

كتب صـدرت للمؤلف

* **رائحة حياتنا**
جماعة الفن الحر ــ ١٩٤٦

* **أيام الطفولة**
الطبعة الأولى ــ دار الفكر ــ ١٩٥٥
الطبعة الثانية ــ دار الفكر ــ ١٩٥٨
الطبعة الثالثة ــ دار الثقافة الجديدة ــ ١٩٧٢

* **أزمة كاتب**
الكتاب الذهبى ــ ١٩٦٥ (نفد)

* **نشيد الانشاد**
دار الثقافة الجديدة ــ ١٩٦٨ (نفد)

* **الطريق**
الطبعة الأولى
دار الثقافة الجديدة ــ ١٩٧٢ (نفد)
الطبعة الثانية ــ العربى للنشر ١٩٧٨

* **ابن الانسان**
دار الثقافة الجديدة ــ ١٩٧٢

* **عن العقارب والحب والطب والمساجين**
العربى للنشر ــ ١٩٧٨

* **الحب الأول**
روايات الهلال ــ ١٩٨٣

رسالة العام الجديد ــ الثمن ١٠٠ قرش

رقم الايداع بدار الكتب
١٨٣١\١٩٨٤

«مطبوعات الغد»

الثمن ١٠٠ قرش